

تأليف

الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر سيدي
محي الدين بن عربي الحاتمي الطائي

المجلد الأول

دار الرسول الأكرم (ص)

دار المحجة البيضاء

(١)

تهذيب الأخلاق

- تقديم .
- الأخلاق المذمومة .
- في الأخلاق المحمودة .
- في النفس الشهوانية .
- في النفس الغضبية .
- في النفس الناطقة .
- في أنواع الأخلاق وأقسامها .
- في طريق الارياض بالأخلاق والتعمل لاعتيادها .
- في أوصاف الإنسان التام الجامع لمحاسن الأخلاق وطريقته التي بها يصل إلى التمام .



تقـــديم

بسم الله الرّحمن الرّحيم

وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلّم :

نحمـد الله سبحانـه وتعالى ، الـذي وصف أكرم أنبيـائـه بـأعـظم الـوصف وأكرمـه في غير مـا آية من كتـابه الكـريم ، منها قـوله تعـالىٰ : ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ .

ومنها قوله تعالى :

﴿ولـــو كنت فـظاً غليظ القلب لانفضـــوا من حـولـــك ، فـــأعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر﴾ .

ومنها قوله تعالىٰ :

﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾ .

وهكـــذا في القـرآن الكـــريم آيـات كثيـــرة : تحض على مكـــارم الأخلاق وتنهىٰ عن سفسافها .

وكذلك ورد في الحديث الشريف مالا يكاد يقع تحت حصر .

منهـــا قـولـــه (ص) ـ فيمـا رواه الحـــاكم ـ «إن الله يحب معـــالي الأخلاق ، ويكره سفسافها» .

وروى ابن السمعاني في كتاب «أدب الإملاء» قوله (ص) :

«أدبني ربي فأحسن تأديبي» .

ورُوى أبو الشيخ(رحمه الله تعالى): أن رسول الله (ص) قال :

«الخلق زمام من رحمة الله» .

وروى الطبراني ، عنه (ص) ، أنه قال :

«الخلق الحسن يذهب الخطايا كما يذهب الماء الجليد ، والخلق السيء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل» .

* * *

وبعد :

فقد كتب كثير من علماء المسلمين في «الأخلاق» ، وما تؤدي إليه من نتائج ، وأوضحوها أبين إيضاح وأفضل بيان .

وممن كتب في هذا المجال : الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي (رحمه الله تعالى رحمة واسعة) : كتابه هذا الذي نقدم له تلك المقدمة الصغيرة .

ونحن هنا لا نزكيه ، فإنه ـ كما يقولون ـ أشهر من نار على علم .

والذي يحتاج إلى تزكية تكون فيه مادة النقص أوفر وأعلى من مادة الكمال .

وليس هو كذلك ، فإن فضله مشهور ، وعلمه غزير ، وكماله أوفر بكثير مما يتصور الناس .

إنه علم من أعلام الإسلام ، وإن أنكر هذا جاحدوه ، وشرق عند سماع اسمه شانؤه ، ورغم حسد الحاسدين وافتراء المفترين وكذب الكذابين وإفكهم .

ستلتقي الأعين أمام الله تبارك وتعالى ، ويتضح المكنون ، ويظهر المبطون ، في اليوم الذي لا يغني فيه المال ، ولا الدعاوي الكاذبة ـ ﴿**يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً**﴾ .

هذا الكتيب ـ على صغره ـ جامع لأخلاق الحميدة ، وناه عن الأخلاق الذميمة ، بأسلوب المتمكن أمكن في مادته وعلمه ، إذ تحت كل كلمة من كلماته بحر من المعاني ، غزير غوره ، بعيد ما بين شاطئيه .

سلك فيه مسلكاً فذاً رائعاً في بيان كل خلق ، وأسبابه ونتائجه فما ترك فيه خلقاً حميداً إلاَّ مجده ، ولا مسلكاً وضيعاً إلاَّ هتكه وفضحه .

واستعمل ركيزة أهل العلم والتجربة والخبرة ، فإنه عمل رئيساً لديوان «الإنشاء والرسائل» لبعض ملوك الأندلس .

* * *

ذكر السيد : شكيب أرسلان في كتابه «الحلل السندسية» هذا الكتاب باسم «الأخلاق» وذكر أنه ترجم إلى اللغة التركية .

* * *

والنسخة التي راجعنا عليها طبعت في ٢ شعبان سنة ١٣٣٢ هـ باسم «فلسفة الأخلاق» وجاء في آخرها ما نصه :

«تمَّ والحمد لله على كل حال في ٢ شعبان سنة ١٣٣٢ هجرية ، على ذمة المتوكل على الله : «علي محمد أبو طالب» الكتبي بخان الخليلي بمصر .

وجاء في أولها ترجمة للشيخ الأكبر من صفحتين ، حذفناهما لعدم الجدوى ، ولأنه من خصوصيات الطبعة الأولى ، وترجمة الشيخ (رحمه الله تعالى) مشهورة معروفة .

وكتب في آخرها جملة حكم وآداب : التقطها الناشر من كتب الشيخ ، حذفناها أيضاً لأننا لا نقصد غير الكتاب وحسب . وما كان دخيلاً عليه لا شأن لنا به .

* * *

وقد ذكر الشيخ (رحمه الله تعالىٰ) في آخر الكتاب اسمه ، بقوله : (وهذا حين نختم القول بـ «تهذيب الأخلاق») .

فلذلك أدرنا هذه التسمية .

ونسأل الله تعالى أن يجعل علمنا هذا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يجزي الشيخ أفضل الجزاء عن الإسلام والمسلمين : إنه سميع مجيب .

الناشر

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

الحمد لله ربّ العالمين .

وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً .

إعلم أن الإنسان ـ من بين سائر الحيوان ـ ذو فكر وتمييز ، وهو أبداً يحب من الأمور : أفضلها ومن المراتب أشرفها ، ومن المقتنيات : أنفسها إذا لم يعدل عن التمييز في اختياره ، ولم يغلبه هواه في اتباع أغراضه .

وأولىٰ ما أختاره الإنسان لنفسه ، ولم يقف دون بلوغ غايته ، ولم يرض بالتقصير عن نهايته : تمامه وكماله[1] .

ومن تمام الإنسان وكماله : أن يكون مرتاضاً[2] بمكارم الأخلاق ، ومحاسنها ، ومتنزهاً[3] عن مساويها ومقابحها ، أخذاً في جميع أحواله بقوانين الفضائل ، عادلاً في كل أفعاله عن طريق

---

(١) يعني ينبغي للإنسان أن يبلغ غاية جهده في تكميل نفسه والسعي بها إلى أعلىٰ الدرجات جهد طاقته .

(٢) يعني مدرباً على المكارم .

(٣) تنزه عن الشيء : بعد عنه وأنفه .

الرذائل ، فإذا كان ذلك كان واجبا على الإنسان أن يجعل قصده اكتساب كل شيمة[١] سليمة من المعائب ، ويصرف همته على إقتناء كل خيم[٢] كريم ، خالص من الشوائب ، وأن يبذل جهده في إجتناب كل خصلة مكروهة ردية ، ويستفرغ وسعه في إطراح كل خلة مذمومة دنية ، حتى يحوز الكمال بتهذيب خلائقه ، ويكتسي حلل الجمال بدمائه[٣] شمائله ، ويباهي بحق أهل السؤدد والفخر ، ويلحق بالذرى[٤] من درجات النباهة والمجد .

إلاّ أن المبتدىء بطلب هذه المرتبة ، والراغب في بلوغ هذه المنزلة ، ربما خفيت عليه الخلال المستحسنة ، التي يعنيه تحريها ، ولم تتميز له من المستقبحة التي غرضه توقيها .

فمن أجل ذلك ، وجب أن نقول في الأخلاق قولاً نبين فيه :

ما الخلق ؟

وما علته ؟

وكم أنواعه ، وأقسامه ؟؟

وما المرضي منها المغبوط صاحبه والمتخلق به ؟

وما المشنو[٥] منها ، المقموت فاعله ، والمترسم به ؟

ليسترشد بذلك : من كانت له همة تسمو إلى مباراة أهل الفضل ، ونفس أبية ، تنبو[٦] عن مساواة أهل الدناءة والنقص ، وتدل أيضاً على طريق الارتياض بالمحمود من أنواعه ، والتدرب به ، وتنكب

---

(١) الشيمة : الصفة .

(٢) سجية وطبيعة .

(٣) سهولة الخلق .

(٤) الذرى : بضم الذال وفتح الراء : من ذروة الجمل : أعلى مكان فيه .

(٥) المكروه منها .

(٦) نبا عن الشيء : بعد عنه .

المذموم منها وتجنبه ، حتى يصير المرتاض به ديدناً[1] وعادة وسجية وطبعاً ليهتدي به من نشأ على الأخلاق السيئة وألفها ، وجرى على العادات الردية وأنس بها .

ونصف أيضاً الإنسان التام المهذب الأخلاق ، والمحيط بجميع المناقب الجميلة ، وطريقته التي يصل بها إلى التمام ، وتحفظ عليه الكمال ، ليشتاق إلى صورته[2] من تشوق إلى الرتبة العليا ، ويحن إلى احتذاء سيرته من استشرف إلى الغاية القصوى .

وقد ينتبه بما نذكره من كانت له عيوب قد اشتبهت عليه ، وهو مع ذلك يظهر أنه في غاية الكمال .

فإن من هذه حالة إذا تكرر عليه ذكر الأخلاق المكروهة ، تيقظ لما فيه من ذلك وأنف[3] واجتهد في تركه والتنزه عنه .

وكذلك إذا تصفح الأخلاق المحمودة ، من كان جامعاً لأكثرها ، عادماً لبعضها ، قدّم إلى التخلق بذلك البعض الذي هو عادم له ، وتاقت نفسه إلى الإحاطة بجميعها .

وقد ينتفع بما نذكره أيضاً من كان في غاية الكمال ، فإن المهذب الأخلاق الكامل الآلات ، الجامع المحاسن ، إذا مرّ بسمعه ذكر الخلائق الجميلة ، والمناقب النفيسة ، ورأى أن تلك هي عاداته وسجاياه ، كانت له بذلك لذة عجيبة ، وفرحة مبهجة ، كما أن الممدوح يسر إذا ذكر المادح نفسه ، ونشر فضائله .

وأيضاً فإنه إذا وجد أخلاقه مدونة في الكتب ، موصوفة بالحسن ، كان ذلك داعياً إلى الإستمرار على سيرته ، والإصرار على طريقته .

---

(١) الضمير راجع إلى الخلق ، أي يصير الخلق الذي عود نفسه عليه : عادة له وطبيعة .

(٢) أي إلى صورة الإنسان الكامل .

(٣) أنف : تنزه عنه .

وهذا حين ابتدائنا بذكر الأخلاق فنقول :

«إن الخلق هو حال النفس ، بها يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولا اختيار» .

والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعاً ، وفي بعضهم لا يكون إلاّ بالرياضة والاجتهاد ، كالسخاء ، يوجد في كثير من الناس من غير رياضة ، ولا تعمل ، وكالشجاعة والحلم والعفة والعدل ، وغير ذلك من الأخلاق المحمودة .

وكثير من الناس يوجد فيهم ذلك بالرياضة .

ومنهم من يبقى على عادته ، ويجري على سيرته .

الأخلاق المذمومة

فأما الأخلاق المذمومة ، فإنها موجودة في كثير من الناس ، كالبخل ، والجبن ، والظلم ، والشر .

فإن هذه العادات غالبة على أكثر الناس ، مالكة لهم .

بل قلما يوجد في الناس من يخلو من خلق مكروه ، ويسلم من جميع العيوب .

ولكنهم يتفاضلون في ذلك .

وكذلك في الأخلاق المحمودة ، قد تختلف الناس ويتفاضلون ، إلاَّ أن المجبولين على الأخلاق الجميلة قليلون جداً .

وأما المجبولون على الأخلاق السيئة ، فأكثر الناس ، لأن الغالب على طبيعة الإنسان الشر .

وذلك أن الإنسان إذا استرسل مع طبعه ، ولم يستعمل : الفكر ، ولا التمييز ، ولا الحياء ، ولا التحفظ ، كان الغالب عليه أخلاق البهائم ، لأن الإنسان إنما يتميز عن البهائم بالفكر والتمييز .

فإذا لم يستعملها ، كان مشاركاً للبهائم في عاداتها ، والشهوات مستولية عليه ، والحياء غائب عنه ، والغضب يستنفره ، والسكينة غير

حاضرة له ، والحرص والأحقاد ديدنه ، والشر لا يفارقه .

فالناس مطبوعون على الأخلاق الردية ، منقادون للشهوات الدنية .

ولذلك وقع الافتقار إلى الشرائع والسنن ، والسياسات المحمودة ، وعظم الانتفاع بالملوك الحسنى السيرة ، ليردعوا الظالم عن ظلمه ، ويمنعوا الغاصب عن غصبه ، ويعاقبوا الفاجر على فجوره ، فيقمعوا الجائر حتى يعود إلى الاعتدال في جميع أموره .

فالأخلاق المكروهة في طباع الناس .

إلَّا أن فيهم من يتظاهر بها ، وينقاد لها ، وهم شرار الناس .

وفيهم من ينتبه بجودة الفكر ، وقوة التمييز لقبحها ، فيأنف منها ، ويتصنع لاجتنابها ، وذلك يكون عن طبع كريم ونفس شريفة .

وفيهم من لا ينتبه لذلك ، إلَّا أنه إذا نبه عليه أحسن بقبحه ، فربما حمل نفسه على تركه .

وفيهم من إذا أنتبه لما فيه من النقائص ، أو نبه عليها ، ورام العدول عنها : تعذر عليه ذلك ، ولم يطاوعه طبعه ، وإن كان مريداً للعدول عنها مجتهداً في ذلك .

وهذه الطائفة تحتاج أن ترشد إلى طريق التدرب والتعمل للعادات المحمودة ، حتى يصير إليها على التدريج .

ومن الناس من ينتبه للأخلاق الردية أو ينبه عليها ، فلا يحن إلى تجنبها ، ولا تسمح نفسه بمفارقتها ، بل يؤثر الإصرار عليها ، مع علمه برادءتها وقبحها .

وهذه طائفة ليس إلى تهذيبها طريق ، إلَّا بالقهر والتخويف والعقوبة ، إن لم يردعها الترهيب .

في الأخلاق المحمودة

فأما الأخلاق المحمودة فإنها وإن كانت في بعض الناس عزيزة ، فليست في جميعهم ، وإن الباقين قد يمكن أن يصيروا إليها بالتدرب والرياضة ، ويترقوا إليها بالاعتياد والألفة .

ومع هذا الحال فقد يكون في الناس من لا يقبل طبعه العادات الحسنة ، ولا الخلق الجميل ، وذلك يكون لرداءة جوهره ، وخبث عنصره .

وهذه الطائفة من جملة الأشرار ، الذين لا يرجى صلاحهم ، وكثير من الناس من يقبل كثيراً من الأخلاق المحمودة ، وينبو طبعه عن بعضها ، وليس يعد هذا شريراً ، ولكن رتبته في الخير بحسب محاسنه .

فأما العلة الموجبة لاختلاف الأخلاق ، وهي النفس ، فللنفس ثلاث قوى ، وهي تسمى أيضاً نفوساً .

وهي النفس الشهوانية ، والنفس الغضبية . والنفس الناطقة .

وجميع الأخلاق تصدر عن هذه القوى ، فمنها ما يختص

بإحداهن ، ومنها ما يشترك فيه قوتان ، ومنها ما يشترك فيه القوى الثلاث .

ومن هذه القوى ما يكون للإنسان وغيره من الحيوان .

ومنها ما يختص به الإنسان فقط .

في النفس الشهوانية

أما النفس الشهوانية ، فهي للإنسان ولسائر الحيوان ، وهي التي يكون بها جميع اللذات والشهوات الجسمانية ، كالإقدام إلى المآكل والمشارب ، والمباضعة[1] .

وهذه النفس قوية جداً ، متى لم يقهرها الإنسان ، ويهذبها ملكته ، فاستولت عليه .

فإذا هي استولت عليه خسر تهذيبها ، وصعب قمعها وتذليلها .

فإذا تمكنت هذه النفس من الإنسان وملكته ، وانقاد لها كان بالبهائم أشبه من بالناس ، لأن أغراضه ومطلوباته وهمته تصير أبداً مصروفة إلى الشهوات واللذات فقط ، وهذه هي عادات البهائم .

ومن يكون بهذه الصفة ، يقل حياؤه ، ويكثر خرقه[2] ، ويستوحش من أهل الفضل ، ويميل إلى الخلوات[3] وينقبض عن المجالس الحفلة[4] ، ويبغض أهل العلم ، ويشنأ أهل الورع

(١) المباضعة : كناية عن الجماع .

(٢) الخرق : بفتح الخاء والراء : إذا عمل شيئاً لم يرفق فيه .

(٣) المقصود بالخلوات هنا : أنه يبعد عن أهل الكمال وينعزل عنهم .

(٤) بفتح الحاء وكسر الفاء : أي مجالس الجماعات .

والنسك ، ويود أصحاب الفجور ، ويحب الفواحش ، ويكثر ذكرها ، ويلذ له استماعها ، ويسر بمعاشرة السفهاء ، ويغلب عليه الهزل ، وكثرة اللهو .

وقد يصير من هذه حالة إلى الفجور ، وارتكاب الفواحش والتعرض للمحظورات .

وربما دعته محبة اللذات إلى إكتساب الأموال من أقبح وجوهها ، وربما حملته نفسه على الغضب والتلصص ، والخيانة ، وأخذ ماليس له بحق ، فإن اللذات لا تتم لا بالأموال والأعراض .

فمحب اللذة إذا تعذرت عليه الأموال من وجهها ، جسرته شهوته على اكتسابها من غير وجهها .

ومن تنتهي به شهواته إلى هذا الحد ، فهو أسوأ الناس حالاً ، وهو من الأشرار ، الذين يخاف خبثهم ، ويستوحش منهم ، ويستروح إلى البعد عنهم ، ويصير واجباً على متولى السياسات قمعهم وتأديبهم ، وإبعادهم ونفيهم ، حتى لا يختلطوا بالناس ، فإن اختلاط من هذه صفته بالناس مضرة لهم ، وخاصة لاحداثهم ، فإن الحدث سريع الانطباع ، ونفسه مجبولة إلى الميل إلى الشهوات ، فإذا شاهد غيره مرتكباً لها ، مستحسناً للانهماك فيها ، مال هو أيضاً إلى الإقتداء به، وإلى مساعدة لذته .

وأما من ملك نفسه الشهوانية وقهرها ، كان ضابطاً لنفسه ، عفيفاً في شهواته ، محتشماً من الفواحش ، متوقياً من المحظورات محمود الطريقة في جميع ما يتعلق باللذات ، فالعلة الموجبة لاختلاف عادات الناس في شهواتهم ولذاتهم ، وعفة بعضهم ، وفجور بعضهم ، هو اختلاف أحوال النفس الشهوانية ، فإنها إذا كانت مهذبة مؤدبة ، كان صاحبها عفيفاً ضابطاً لنفسه ، وإذا كانت مهملة مرسلة ، مالكة لصاحبها : كان صاحبها : فاجراً شريراً .

وإذا كانت متوسطة الحال ، كانت رتبة صاحبها في العفة كرتبتها في التأدب .

فمن أجل ذلك وجب أن يؤدب الإنسان نفسه الشهوانية ، ويهذبها حتى تصير منقادة له ، ويكون هو مالكها ، فيستعملها في حاجاته التي لا غنىً عنها ، ويكفها عما لا حاجة له إليه من الشهوات الردية ، واللذات الفاحشة .

في النفس الغضبية

وأما النفس الغضبية ، فيشترك فيها أيضاً الإنسان وسائر الحيوان .

وهي التي يكون بها : الغضب ، والجراءة ،ومحبة الغلبة .

وهـذه النفس أقـوى من النفس الشهـوانيـة ، وأضـر بصـاحبهـا إذا ملكته وانقاد لها .

فإن الإنسان إذا إنقاد للنفس الغضبية كثـر غضبه ، وظهـر خرقـه ، واشتـد حقـده ، وعـدم حلمـه ووقـاره ، وقـويت جراءته ، وأسـرع عنـد الغضب إلى الإنتقـام والايقـاع بمغضبـه ، والـوثـوب على خصـومـه ، فأسرف في العقوبة ، وزاد في التشفي[1] فأكثر السب وأفحش فيه .

فـإذا استمرت هـذه العـادات بـالإنسـان كـان بـالسبـاع أشبـه منـه بالناس .

وربما حمل قوماً[2] على حمل السلاح .

---

(١) قال في المصباح المنير : «واشتفيت بالعدو وتشفيت به من ذلك ، لأن الغضب الكامن كالداء ، فإذا زال بما يطلبه الإنسان من عدوه فكأنه بريء من دائه .

(٢) مفعول لفعل محذوف تقديره : «حمل الغضب قوماً» والله أعلم .

وربما أقدموا على القتل والجراح .

وربما وثبوا بالسلاح على إخوانهم ، وأوليائهم ، وعبيدهم ، وخدمهم عند الغضب من اليسير من الأمور .

وربما غضب من هذه حالة ، ولم يقدر على الإنتقام من خصمه ، فيعود بالضرر والسب والألم على نفسه .

فمنهم من يلطم وجهه ، وينتف لحيته ، ويعض يده ، ويسب نفسه ، ويذكر عرضه .

وأيضاً فإن من تملكه[1] النفس الغضبية يكون محباً للغلبة ، متولياً على من آذاه ، مقدماً على كل من ناوأه ، طالباً للترأس من غير وجهة .

فإذا لم يتمكن من الرياسة من وجهها ، توصل إليها بالحيل الخبيثة ، فاستعمل كل ما يمكنه من الشر .

وهذه الأفعال تورط صاحبها ، وتوقعه في المهاوي والمهالك .

فإن من وثب على الناس ، وثبوا عليه ، ومن خاصمهم خاصموه ومن أقدم عليهم أقدموا عليه ، ومن تشرر عليهم قصدوه بالشر .

وربما تسفه الإنسان على خصمه ، وكان الخصم أسفه منه ، فإن ناله بسوء ، قابله ذلك بأكثر منه .

وقد يغلب على من هذه حاله : الحسد ، والحقد ، والقحة[2] واللجاج[3] ، والجور .

وقد يحمل هؤلاء محبة الغلبة وطلب الرئاسة على إكتساب

---

(١) بضم الكاف لأنها في الأصل تتملكه .

(٢) القحة : بكسر القاف وفتحها .

(٣) في المصباح «قال ابن فارس : اللجاج تماحك الخصمين ، وهو تماديهما» .

الأموال من غير وجهها ، وأخذها بالغلبة والظلم .

وربما قتلوا على محبة الغلبة من يناوئهم .

وربما فعلوا ذلك من غير روية ، فيؤول الأمر بهم إلى البوار والاستئصال .

فأما من ساس نفسه الغضبية ، وأدبها وقمعها : كان رجلاً ، حليماً ، وقوراً ، عادلاً ، محمود الطريقة .

فالعلة الموجبة لاختلاف عادات الناس في غيظهم وسفاهة بعضهم ، هو اختلاف أحوال النفس الغضبية .

إذا كانت مذللة مقهورة : كان صاحبها حليماً وقوراً .

وإذا كانت مهملة ، مستولية على صاحبها ، كان صاحبها : غضوباً ، سفيهاً ، غشوماً .

وإذا كانت متوسطة ، كان صاحبها متوسط الحال ، رتبته في الحلم كرتبة نفسه الغضبية ، حتى تنقاد له فيملكها ويستعملها في المواضع التي يجب استعمالها فيها .

فإن لهذه النفس فضائل محمودة ، وذلك لأن الأنفة من الأمور الدنية ، ومحبة الرئاسة الحقيقية ، وطلب المراتب العالية ، من الأخلاق المحمودة ، وهي في أفعال النفس الغضبية .

فإذا ملك هذه بالتأديب والتهذيب ، واستعملها في الأمور الجميلة ، وكفها عن الأفعال المكروهة ، كان حسن الحال ، محمود الطريقة .

في النفس الناطقة

وأما النفس الناطقة ، وهي التي بها تميز الإنسان من جميع الحيوان .

وهي التي بها يكون الذكر[1] والتمييز ، والفهم .

وهي التي بها شرف الإنسان وعظمت همته ، فأعجب بنفسه .

وهي التي بها يستحسن المحاسن ، ويستقبح القبائح ، وبها يمكن الإنسان أن يهذب قوتيه الباقيتين ، وهما[2] : الشهوانية والغضبية ، ويكفهما ويضبطهما وبها يفكر في عواقب الأمور ، فيبادر بإستدراكها في أوائلها .

ولهذه النفس أيضاً فضائل ورذائل .

أما فضائلها فباكتساب العلوم والآداب ، وكف صاحبها عن الرذائل والفواحش ، وقهر النفسين الآخرين ، وتأديبهما ، وسياسة صاحبهما في معاشه ومكسبه ومروءته وتجمله ، وحث صاحبها على :

---

(١) بكسر الذال ، وسكون الكاف .

(٢) في الأصل : وهي .

فعل الخير ، والتودد ، والرقة ، وسلامة النية ، والحلم ، والحياء ، والنسك ، والعفة ، وطلب الرئاسة من الوجوه الجميلة .

وأما رذائلها : فالخبث ، والحيلة ، والخديعة ، والملق[1] والمكر ، والحسد ، والتشرر ، والرياء .

وهذه النفس هي لجميع الناس .

إلاَّ أن منهم من تغلب عليه فضائلها ، فيستحسنها ويستعملها .

ومنهم من تغلب عليه رذائلها فيألفها ويستمر عليها .

ومنهم من يجتمع فيه بعض الفضائل وبعض الرذائل .

وهذه العادات قد تكون في كثير من الناس سجية وطبعاً لا بتكلف .

فأما المطبوع على العادات الجميلة ، فمنها ما يكون لقوة نفسه الناطقة عنصرياً .

وأما المطبوع على العادات المكروهة ، فلضعف نفسه الناطقة ، وسوء جوهره .

وأما الذي يجتمع فيه فضائل ورذائل ، فهو الذي تكون نفسه الناطقة متوسطة الحال .

وقد يكتسب أكثر الناس هذه العادات ، وجميع الأخلاق جميلها وقبيحها إكتساباً .

وذلك يكون بحسب منشأ الإنسان ، وأخلاق من يحيط به ، ويشاهده ، ويقرب منه ، وبحسب رؤساء وقته ، ومن يشار إليه بالنباهة ، ويغبط على رتبته فإن الحدث[2] الناشيء يكتسب الأخلاق

---

(١) في المختار : «ورجل ملق : يعطي بلسانه ما ليس في قلبه» .

(١)(٢)مغير الناشيء .

ممن يكثر ملابسته ومخالطته ، ومن أبويه ، وأهله وعشيرته .

فإذا كان هؤلاء سيء الأخلاق مذمومي الطريقة ، كان الحدث الناشيء بينهم أيضاً سيئي الأخلاق ، مكروه العادات .

وإذا لحظ الحدث أيضاً أهل الرئاسة ، ومن فوقه ، وغبطهم على مراتبهم : آثر التشبه بهم والتخلق بأخلاقهم .

فإذا كانوا مهذبي الأخلاق حسنى السيرة، كان المتشبه بهم حسن الأخلاق مرضي الطريقة .

وإن كانوا أشراراً جهالاً خرج الغابط لهم ، السالك طريقهم شريراً جاهلاً .

وهذه حال أخلاق أكثر الناس ، فإن : الجهل ، والشر ، والخبث ، والشره والحسد ، غالب عليهم .

والناس بالطبع : يقتدي بعضهم ببعض ، ويحتذي التابع أبداً سيرة المتبوع .

وإذا كان الغالب عليهم الشر والجهل ، كان واجباً أن لا يقتدي أحداثهم وأولادهم وأتباعهم بهم .

فالعلة الموجبة لاختلاف قوة النفس : اختلاف الناس في سياساتهم وفضائلهم ، وغلبة الخير والشر عليهم ، من اختلاف قوة النفس الناطقة فيهم إذا كانت خيرة ، فاضلة ، قاهرة للنفسين الباقيتين ، كان صاحبها خيراً عادلاً حسن السيرة ، وإذا كانت شريرة ، خبيثة مهملة للنفسين الآخريين ، كان صاحبها شريراً خبيثاً جاهلاً .

فمن أجل ذلك ، وجب أن يعمل الإنسان فكره ، ويميز أخلاقه ، ويختار منها ما كان جيداً مستحسناً جميلاً ، وينفي منها ما كان مستنكراً

قبيحاً ، ويحمل نفســه على التشبه بـالأخيار ويتجنب كـل التجنب عادات الأشرار .

فإنه إذا فعـل ذلك صـار بالإنسـانية متحققـاً ، وللرئاسـة الذاتيـة[1] مستحقاً .

---

(١) الرئاسة الذاتية : أي يترأس نفسه ويملكها ، ولا تملكه .

في أنواع الأخلاق وأقسامها

فأما أنواع الأخلاق وأقسامها ، وما المستحسن منها وما المستحب اعتياده ويعد فضائل ، وما المستقبح منها وما المكروه ويُعد نقائص ، ومعائب ، فهي الأنواع التي نحن واصفوها :

أما التي تعد فضائل ، فإن منها العفة ، وهي : ضبط النفس عن الشهوات ، وقسرها على الاكتفاء بما يقيم أود الجسد ويحفظ صحته ، واجتناب السرف ، والتقصير في جميع اللذات ، وقصد الاعتدال ، وأن يكون ما يقتصر عليه من الشهوات على الوجه المستحب ، المتفق على ارتضائه ، وفي أوقات الحاجة التي لا غنىً عنها ، وعلى القدر الذي لا يحتاج إلى أكثر منه ، ولا يحبس النفس والقوة أقل منه .

وهذه الحال هي غاية العفة .

ومنها القناعة ، وهي الاقتصار على ما سنح من العيش ، والرضى بما يسهل من المعاش ، وترك الحرص على إكتساب الأموال ، وطلب المراتب العالية ، مع الرغبة في جميع ذلك وإيثاره والميل إليه ، وقهر النفس على ذلك ، والتمتع باليسير منه .

وهذا الخلق مستحسن من أوساط الناس وأصاغرهم .

وأما الملوك والعظماء فليس ذلك مستحباً منهم ، ولا تُعد القناعة من فضائلهم .

ومنها التصون ، وهو التحفظ من التبذل . فمن التصون : التحفظ من الهزل القبيح ، ومخالطة أهله ، وحضور مجالسه ، وضبط اللسان من الفحش ، وذكر الخنا والقبيح ، والمزاح السخيف ، وخاصة في المحافل ، ومجالس المحتشمين .

ولا أبهة لمن يسرف في المزاح ، ويفحش فيه .

ومن التصون أيضاً الإنقباض عن أدنياء الناس وأصاغرهم ، ومصادقتهم ، ومجالستهم والتحرز من المعايش الردية ، وإكتساب الأموال من الوجوه الخسيسة ، والترفع عن مسألة الحاجات للئام الناس وسفلتهم ، والتواضع لمن لا قدر له ، والإقلال من البروز من غير حاجة والتبذل بالجلوس في الأسواق وقوارع الطرق من غير اضطرار .

فإن الإكثار من ذلك مخل .

وأعظم الناس قدراً عند الخلق : من ظهر اسمه وخفي شخصه .

وأما الحلم وهو ترك الإنتقام عند شدة الغضب ، مع القدرة على ذلك ، وهذه محمودة ما لم تؤد إلى ثلم[1] جاه أو فساد سياسة .

وهي بالرؤساء والملوك أحسن ، لأنهم أقدر على الإنتقام من مغضبيهم ، ولا يعد فضيلة : حلم الصغير عن الكبير : وإن كان قادراً على مقابلته في الحال .

فإنه وإن أمسك ، فإنما يعد ذلك خوفاً لا حلماً .

ومنها الوقار ، وهو الإمساك عن فضول الكلام ، والعيب وكثرة الإشارة ، والحركة فيما يستغني عن الحركة فيه ، وقلّة الغضب ،

---

(١) الثلم : الخلل .

والإصغاء عنه الاستفهام ، والتوقف عند الجواب ، والتحفظ عن التسرع ، والمبادرة في جميع الأمور .

ومن قبيل الوقار أيضاً : الحياء ، وهو غض الطرف والانقباض عن الكلام حشمة للمستحيا منه .

وهذه العادة محمودة ما لم تكن عن عي[1] ولا عجز .

ومنها : الود ، وهي : المحبة المعتدلة من غير اتباع الشهوة ، والود مستحسن من الإنسان إذا كان وده لأهل الفضل والنبل ، وذوي الوقار والأبهة ، والمتميزين من الناس .

وأما التودد إلى أراذل الناس وأصاغرهم ، والأحداث ، والنسوان ، وأهل الخلاعة ، فمكروه جداً .

وأحسن الود ما ينتجه بين متآلفين : مناسبة الفضائل ، وهو أوثق الود ، وأثبته .

وأما ما كان ابتداؤه اجتماعاً على هزل أو لطلب لذة ، فليس هو محموداً ، وليس بباق ، ولا ثابت .

ومنها : الرحمة ، وهو خلق مركب من الود والجزع .

والرحمة : لا تكون إلاّ لمن ظهر منه لراحمه خلة مكروهة .

إما نقيصة ، وإما محنة عارضة .

فالرحمة هي محبة للمرحوم ، مع جزع من الحال التي من أجلها رحم .

وهذه الحال مستحسنة ، ما لم تخرج بصاحبها عن العدل ، ولم تنته به إلى الجور ، وإلى فساد السياسة ، فليس بمحمود رحمة القاتل عند القود ، والجاني عند القصاص .

---

(١) العي : بكسر العين : عدم الاهتداء للوجه الذي يريده والعي ضد البيان .

ومنها : الوفاء ، وهو الصبر على ما يبذله الإنسان من نفسه ، ويرهن به لسانه ، والخروج مما يضمنه ، وإن كان مجحفاً به ، فليس يعد وفياً من لم يلحقه بوفائه أذية وإن قلت . وكلما أضر به الدخول تحت ما يحكم به على نفسه ، كان أبلغ في الوفاء .

وهذا الخلق محمود ، ينتفع به جميع الناس .

فإن من عرف بالوفاء ، كان مقبول القول ، عظيم الجاه ، إلاَّ أن انتفاع الملوك بهذا الخلق ، أكثر ، وحاجتهم إليه أشد .

وإنه متى عرف منهم قلة الوفاء ، لم يوثق بمواعيدهم ، ولم تتم أغراضهم ، ولم يسكن إليهم جندهم وأعوانهم .

ومنها أداء الأمانة ، وهو التعفف عما يتصرف الإنسان فيه من مال وغيره ، وما يوثق به وعليه من الأعراض ، والحرم[1] مع القدرة عليه ، ورد ما يستودع إلى مودعه .

ومنها : كتمان السر .

وهذا الخلق مركب من الوقار ، وأداء الأمانة .

فإن إخراج السر من فضول الكلام .

وليس بوقور من تكلم بالفضول .

وأيضاً ، فكما أن من أستودع مالاً فأخرجه إلى غير مودعه ، فقد خفر الأمانة ، كذلك من استودع سراً فأخرجه إلى غير صاحبه ، فقد خفر الأمانة[2] .

وكتمان السر محمود من جميع الناس ، وخاصة ممن يصحب

(١) الحرم : بضم الحاء وفتح الراء .
(٢) خفر الأمانة : اضاعها .

السلطان ، فإن إخراجه أسراره ـ مع أنه قبيح ـ يؤدي إلى ضرر عظيم ، يدخل عليه من سلطانه .

ومنها : التواضع ، وهو ترك الترأس ، وإظهار الخمول ، وكراهية التعاظم والزيادة في الإكرام ، وأن يتجنب الإنسان المباهاة بما فيه من الفضائل والمفاخرة بالجاه والمال ، وأن يتحرز من الإعجاب والكبر .

وليس يكون حسن التواضع إلاّ في أكابر الناس ورؤسائهم ، وأهل الفضل والعلم .

وأما سوى هؤلاء ، فليس يكونون متواضعين ، لأن الضعة هي محلهم ورتبتهم ، فهم غير متضعين[1] لها .

ومنها البشر[2] وهو إظهار السرور بمن يلقاه الإنسان من إخوانه وأودائه وأصحابه وأوليائه ومعارفه ، والتبسم عند اللقاء .

وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس ، وهو من الملوك والعظماء أحسن .

فإن البشر في الملوك يتألف به قلوب الرعية والأعوان والحاشية ، ويزداد به تحبباً إليهم .

وليس سعيداً من الملوك من كان متبغضاً إلى رعيته .

وربما أدى ذلك إلى فساد أمره ، وزوال ملكه .

ومنها : صدق اللهجة ، وهو الإخبار عن الشيء على ما هو به .

وهذا الخلق مستحسن ، ما لم يؤد إلى ضرر مجحف ، فإنه ليس بمستحسن صدق الإنسان إن سئل عن فاحشة كان ارتكبها ، فإنه

(١) لأن هناك فرقاً بين المتواضع من الرفعة ، والوضيع بطبعه .
(٢) بكسر الباء وسكون الشين .

لا يفي حسن صدقه بما يلحقه في ذلك من العار والمنقصة الباقية اللازمة .

وكذا ليس يحسن صدقه متى سئل عن مستجير استجاره فأخفاه ، ولا إن سئل عن جناية متى صدق عنها عوقب عليها بعقوبة مؤلمة .

والصدق مستحسن من جميع الناس ، وهو من الملوك والعظماء أحسن ، بل لا يسعهم الكذب ، ما لم يعد الصدق عليهم بضرر .

ومنها سلامة النية ، وهو اعتقاد الخير لجميع الناس ، وتجنب : الخبث(١) والغيبة ، والمكر ، والخديعة .

وهذا الخلق محمود من جميع الناس ، إلَّا أنه ليس يصلح للملوك التخلق به دائماً ، ولا يتم الملك إلَّا باستعمال المكر والحيل والاغتيال مع(٢) الأعداء .

ولكن لا يحسن بهم استعماله مع أوليائهم ، وأصفيائهم ، وأهل طاعتهم .

ومنها السخاء ، وهو : بذل المال من غير مسألة ولا إستحقاق ، وهذا الفعل مستحسن ، ما لم ينته إلى السرف والتبذير ، فإن بذل جميع ما يملك لمن لا يستحقه ، لم يسم سخياً ، بل يسمى مبذراً مضيعاً .

والسخاء في سائر الناس فضيلة مستحسنة ، فأما في الملوك فأمر واجب ، لأن البخل يؤدي إلى الضرر العظيم في ملكهم ، والسخاء والبذل يرتهن به قلوب الرعية والجند والأعوان ، فيعظم الانتفاع به .

---

(١) بضم الخاء وسكون الباء .

(٢) ذلك لأن العدو إن لم تمكر به مكر بك ، وإن لم تغتله اغتالك ، ولكن يجب أن تعلم أنه ليس بين المسلمين عداوة ، وحروب هذه الأيام من المسلمين بعضهم مع بعض حروب جاهلية وكفر والله أعلم .

ومنها الشجاعة ، وهو : الإقدام على المكاره والمهالك ، عند الحاجة إلى ذلك ، وثبات الجأش عند المخاوف ، والاستهانة بالموت .

وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس ، وهو بالملوك وأعوانهم أليق وأحسن ، بل ليس بمستحق للملك من عدم هذه الخلة .

وأكثر الناس أخطاراً وأحوجهم إلى اقتحام الغمرات ، هم الملوك ، فالشجاعة من أخلاقهم الخاصة بهم .

ومنها المنازعة ، وهو منازعة النفس في التشبه بالغير فيما يراه له وهو يرغب فيه لنفسه ، والاجتهاد في الترقي إلى درجة أعلا من درجته .

وهذا الخلق محمود إذا كانت المنافسة في الفضائل والمراتب العالية ، وما يكسب مجداً وسؤدداً ، فأما في غير ذلك من اتباع الشهوات ، والمباهاة باللذات ، والزينة ، والبزة[1] فمكروه جداً .

ومنها : الصبر عند الشدة .

وهذا الخلق مركب من : الوقار والشجاعة .

ومستحسن جداً : ما لم يكن الجزع نافعاً ، ولا الحزن والقلق مجدياً ، ولا الحيلة والاجتهاد دافعة ضرر تلك الحالة .

وما أقبح الجزع إذا لم يكن مفيداً[2] .

ومنها عظمة الهمة ، وهو : استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور ، وطلب المراتب السامية ، واستحقار ما يجود به الإنسان عند

---

(١) بكسر الباء وفتح الزاي المشددة : الهيئة .

(٢) الجزع المفيد : أن لا يقدم الإنسان على الشيء إلاّ إذا تدبر عواقبه ، فإن رآه خيراً أقدم ، وإلاّ أحجم .

لعطية ، والاستخفاف بأوساط الأمور ، وطلب الغايات ، والتهاون بما يملكه ، وبذل ما يمكنه لمن يسأله ، من غير امتنان ولا اعتداد به .

وهذا الخلق من أخلاق الملوك خاصة .

وقد يحسن بالرؤساء والعظماء ، ومن تسمو نفسه إلى مراتبهم .

ومن عظم الهمة : الأنفة ، والحمية[1] والغيرة . والأنفة هو : نبو النفس عن الأمور الدنية .

والحمية ، والغيرة جميعاً هما : الغضب عند الإحساس بالنقص .

وإنما يلحق الإنسان الغيرة على الحرم ، لأن في التعرض لهن عاراً ومنقصة ، فإن المتعرض للحرم مهتضم لصاحبهن ، ومتصرف في حق له .

والاهتضام : نقيصة .

ومن عظم الهمة الأنفة من الاهتضام[2] ، ودخول النقص .

وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس .

ومنها العدل : وهو التوسط اللازم للاستواء ، وهو استعمال الأمور في مواضعها وأوقاتها ، ووجوهها ومقاديرها ، من غير سرف ولا تقصير ، ولا تقديم ولا تأخير .

فأما الأخلاق الردية التي تعد نقائص ومعايب ، فإن منها : الفجور ، وهو الإنهماك في الشهوات ، والاستكثار منها ، والتوفر على اللذات ، والإدمان عليها ، وارتكاب الفواحش ، والمجاهرة بها .

---

(١) بفتح الحاء ، وكسر الميم ، وتشديد الياء المفتوحة .

(٢) اهتضمه : ظلمه حقه .

وبالجملة : السرف في جميع الشهوات .

وهذا الخلق أبداً يهدم الحياء ، ويذهب ماء الوجه ، ويخرق حجاب الحشمة .

ومنها الشره ، وهو : الحرص على إكتساب الأموال وجمعها وطلبها من كل وجه ، وإن قبح التعسف في اكتسابها ، والكالبة عليها ، والاستكثار من القنية[1] وإدخار الأعراض[2] .

وهذا الخلق مكروه في جميع الناس ، إلاَّ من الملوك ، فإن كثرة الأموال والذخائر والأعراض تعين على الملك ، وتزين الملوك ، وتزيدهم هيبة في نفوس رعيتهم ، وأعوانهم ، وأعاديهم وأضدادهم .

ومنها التبذل ، وهو : اطراح الحشمة ، وترك التحفظ عن الهزل واللهو ،ومخالطة السفهاء ، وحضور مجالس السخف والهزل والفواحش ، والتفوه بالخنا ، وذكر الأعراض[3] والمزح ، والجلوس في الأسواق ، وعلى قوارع الطرق ، والتكسب بالمعاش الرديء ، والتواضع للسفلة .

وهذا الخلق قبيح بجميع الناس .

ومنها السفه ، وهو ضد الحلم ، وهو سرعة الغضب والطيش ، من يسير الأمور ، والمبادرة في البطش الإيقاع بالمؤذي ، والسرف في العقوبة ، وإظهار الجزع من أدنى ضرر ، والسب الفاحش .

وهذا الخلق : مستقبح من كل أحد ، إلاَّ أنه من الملوك والرؤساء أقبح .

---

(١) أي يكثر الإنسان من أقتناء الأشياء للحرص .

(٢) الاعراض جمع : عرض بفتح العين والراء .

(٣) يعني بالسوء .

ومنها الخرق[1] وهو كثرة الكلام والتحرك من غير حاجة ، وشدة الضحك ، والمبادرة إلى الأمور من غير قف ، وسرعة الجواب .

وهذا الخلق مستقبح من كل أحد .

وهو بأهل العلم وذوي النباهة : أقبح .

ومن قبيل الخرق القحة ، وهو : قلة الاحتشام ، لمن يجب احتشامه ، والمجاهرة بالجوابات الفظة المستشنعة .

وهذا الخلق مكروه ، وخاصة بذوي الوقار .

ومنها العشق ، وهو إفراط الحب ، والسرف فيه .

وهذا الخلق مكروه على جميع الأحوال ، إلاّ أن أقبحه وأشره : ما كان مصروفاً إلى طلب اللذة ، واتباع الشهوة الردية .

وقد يحمل صاحبه على الفجور وارتكاب الفواحش ، وكثرة التبذل ، وقلّة الحياء ، ويكسبه عادات ردية، وهو بكل أحد قبيح ، إلاّ أنه بالأحداث ، والمترفهين والمتنعمين : أقل قبحاً .

ومنها القساوة ، وهو : خلق مركب من : البغض ، والشجاعة .

والقساوة هو : التهاون بما يلحق الغير من الألم والأذى .

وهذا الخلق مكروه من كل أحد ، إلاّ من الجندي وأصحاب السلاح والمتولين الحروب ، فإن ذلك غير مكروه منهم إذا كان في موضعه .

ومنها الغدر ، وهو : الرجوع عما يبذله الإنسان من نفسه ، ويضمن الوفاء به ، وهذا الخلق مستقبح ، وإن كان لصاحبه فيه مصلحة ومنفعة ، وهو بالملوك والرؤساء أقبح ، وبهم أضر ، فإن عرف

---

(١) بفتح الخاء والراء .

من الملك الغدر لم يسكن إليه أحد ، ولم يثق به ، وإذا لم يسكن إليه : فسد نظام ملكه .

ومنها : الخيانة ، وهو الاستبداد بما يؤمن الإنسان عليه من الأموال والأعراض والحرم[1] وتملك ما يستودع ، ومجاهدة مودعه .

ومن الخيانة أيضاً طي الأخبار إذا بدت مصلحة لتأديتها ، وتحريف الرسائل إذا تحملها وصرفها عن وجهها .

وهذا الخلق ـ أعني الخيانة ـ مكروه من جميع الناس ، يثلم الجاه ، ويقطع وجوه المعايش .

ومنها إفشاء السر .

وهذا الخلق مركب من الخرق والخيانة ، فإنه ليس بوقور من لم يضبط لسانه ، ولم يتسع صدره لحفظ ما يستسر له .

والسر أحد الودائع ، وافشاؤه نقيصة على صاحبه فالمشي للسر : خائن .

وهذا الخلق قبيح جداً ، وخاصة ممن يصحب السلاطين ويداخلهم .

ومن قبيل إفشاء السر : النميمة ، وهو أن يبلغ إنساناً[2] عن آخر قولاً مكروهاً .

وهذا الخلق : قبيح جداً .

وإن لم يستسر أيضاً بما يسمعه أو يبلعه ، فنقله إلى من يكرهه : قبيح ، لأن في ذاك إيقاع وحشة بين المبلغ والمبلغ عنه .

وذلك غاية التشرر :

---

(١) جمع حرمة .

((٢)مفعول لفاعل مقدر .

ومنها : الكبر ، وهو استعظام الإنسان بنفسه ، واستحسان ما فيه من الفضائل ، والإستهانة بالناس ، واستصغارهم ، والترفع على من يجب التواضع له .

وهذا الخلق : مكروه ضار لصاحبه ، لأن من أعجبته نفسه ، لم يستزد من إكتساب الأدب .

ومن لم يستزد بقي عليه نقصه .

فإن الإنسان ليس يخلو من النقص ، وقلما ينتهي إلى غاية الكمال .

وأيضاً فإن هذا الفعل يبغضه إلى الناس ، ومن أبغضه الناس ساءت حاله .

ومنها العبوس : وهو التقطيب عند اللقاء ، وقلّة التبسم ، وإظهار الكراهية .

وهذا الخلق مركب من : الكبر ، وغلظ الطبع .

فإن قلّة البشاشة ، هي : الإستهانة بالناس ، والإستهانة بالناس تكون من الإعجاب والكبر .

وقلّة التبسم أيضاً ـ وخاصة عند لقاء الإخوان ـ يكون من غلظ الطبع ، وهذا الخلق مستقبح وخاصة بالرؤساء والأفاضل .

ومنها : الكذب ، وهو : الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه .

وهذا الخلف: مكروه ، وما لم يكن لدفع مضرة ، لا يمكن أن تدفع إلاَّ به ، واجترار نفع لا غنى عنه ، ولا يوصل إليه إلاَّ به .

فإن الكذب عند ذلك ليس بستقبح ، وإنما بمستقبح الكذب إذا كان عبثاً ، ولنفع يسير لا خطر له ، لا يفي بقباحة الكذب .

والقبح بالملوك والرؤساء أكثر ، لأن اليسير من النقص يشينهم .

ومنها : الخبث : وهو إضمار الشر للغير ، وإظهار الخير له ، واستعمال : الغيلة[١] ، والمكر ، والخديعة في المعاملات .

وهذا الخلق : مكروه من جميع الناس ، إلّا من الملوك والرؤساء ، فإنهم إليه مضطرون ، واستعمالهم إياه مع أضدادهم وأعدائهم لا يستقبح .

فأما أوليائهم وأصحابهم ، فإنه غير مستحسن .

ومن قبيل الخبث : الحقد ، وهو إضمار الشر للجاني إذا لم يتمكن من الإنتقام منه ، فأخفى تلك الأحقاد إلى وقت إمكان الفرصة .

وهذا الخلق : من أخلاق الأشرار ، وهو مذموم جداً .

ومنها البخل : وهو منع المسترفد[٢] مع القدرة على رفده .

وهذا الخلق : مكروه من جميع الناس ، إلّا أنه من النساء كمال[٣] .

وأما سائر الناس ، فإن البخل : يشينهم ، وخاصة الملوك ، والعظماء ، فإن البخل يغض منهم أكثر مما يغض من الرعية والعوام ، ويقدح في ملكهم ، لأنه يقطع الأطماع منهم ، ويبغضهم إلى رعيتهم .

---

(١) الغيلة : بكسر الغين : الاغتيال ، والخداع .

(٢) المسترفد ـ بالفاء : من يطلب منك الرفد ـ بكسر الراء المشددة ، أي العطاء . والله تعالى أعلم .

(٣) لأن المرأة إذا أعطت كل من طلب خربت بيت زوجها ، مع أنها مقيدة برضا الزوج ، لأن ما تعطيه ملكه هو ، لا هي : فتصرفها ـ إذا تصرفت ـ في غير ملكها .

ومنها : الجبن ، وهو الجزع عند المخاوف ، والإحجام عما تحذر عاقبته ولا تؤمن مغبته[1] .

وهذا الخلق : مكروه من جميع الناس ، إلاَّ أنه بالملوك والجند وأصحاب الحروب : أضر .

ومنها الحسد ، وهو : التألم بما يراه الإنسان لغيره من الخير ، وما يجده فيه من الفضائل ، والاجتهاد في إعدام ذلك الغير ما هو له .

وهذا الخلق : مكروه ، وقبيح بكل أحد .

ومنها الجزع عند الشدة ، وهذا الخلق مركب من الخرق والجبن .

وهو يستقبح إذا لم يكن مجدياً ولا مفيداً ، فأما إظهار الجزع لتعمل حيلة بذلك عند الوقوع في الشدة ، واستغاثة مغيث ، أو اجتلاب معين ، فيما تغنى فيه المعاونة ، فغير مكروه ، ولا يعد نقيصة .

ومنها صغر الهمة ، وهو : ضعف النفس عن طلب المراتب العالية ، وقصور الأمل عن بلوغ الغايات ، واستكثار اليسير من الفضائل ، واستعظام القليل من العطايا ، والاعتداد به . والرضى بأوساط الأمور وأصاغرها .

وهذا الخلق : قبيح بكل أحد ، وهو بالملوك أقبح ، بل ليس بمستحق الملك من صغرت همته .

ومنها : الجور ، وهو : الخروج عن الاعتدال في جميع الأمور ، والسرف والتقصير ، وأخذ الأموال من غير وجهها ، والمطالبة بما لا يجب من الحقوق ، وفعل الأشياء في غير مواضعها ولا أوقاتها ، ولا

---

(١) المغبة : العاقبة .

على القدر الذي يجب ، وعلى الوجه الذي يجب .

ومن الأخلاق ما هو في بعض الناس فضيلة ، وفي بعضهم رذيلة .

فمنها : حب الكرامة ، وهو أن يسر الإنسان بالتعظيم والتبجيل ، والمقابلة بالمديح ، والثناء الجميل .

وهذا الخلق محمود في الأحداث والصبيان ، لأن محبة الكرامة تحثهم على اكتساب الفضائل .

وذلك أن الحدث والصبي ، إذا مدح على فضيلة ترى فيه كان ذلك داعياً له من الازدياد من الفضائل .

وأما الأفاضل من الناس ، فإن ذلك يعد منهم نقيصة ، لأن الإنسان إنما يمدح على الفضيلة إذا كانت مستغربة منه ، وإذا كان من أهل الفضل ، فليس ينبغي أن يسر ، بأن يستغرب ما يظهر منه من الفضائل .

وكذلك الإكرام والتبجيل إذا كان زائداً على استحقاقه ، فإنه يجري مجرى الملق ، والسرور بالملق غير محمود ، لأنه من جنس الخديعة .

ومنها : حب الزينة ، وهو التصنع بحسن البزة[1] ، والركوب ، والآلات ، وكثرة الخدم والحشم .

وهذا مستحسن من الملوك والعظماء ، والأحداث ، والظرفاء والمتنعمين ، والنساء .

وأما الرهبان[2] ، والشيوخ ، وأهل العلم ، وخاصة الخطباء

---

(١) بكسر الباء وفتح الزاي المشددة : الهيئة .

(٢) رهبان الحق ـ الذين فرغوا أنفسهم لعبادة الله ـ ، لا رهبان السوء الذين جمعوا كل الرذائل والمستقبحات .

والواعظين ، ورؤساء الدين ، فإن الزينة والتصنع : مستبح منهم .

والمستحسن منهم : لبس الشعر ، والخشن ، والمشي ، والخفاء ، ولزوم الكنائس[1] ، وحبرهم ، وكراهية التنعم .

ومنها المجازاة على المدح ، وهو : مجازاة من يمدح الإنسان ، ويشكره في المجالس والمحافل .

وهذا الخلق مستحسن من الملوك والرؤساء ، لأن ذلك يدعو الناس إلى مدحهم ، ويكسب الممدوح ذكراً جميلاً ، يبقىٰ على الدهر .

ومن فضائل الملوك والرؤساء : بقاء ذكرهم الجميل ، فأما محبتهم سماع المدح مواجهة ، فذلك غير مستحب ، لأنه من جنس الملق ، وحب الملق مكروه ، لأنه من قبيل الخديعة .

وأما إيثارهم انتشار ذكرهم ومدحهم ، وتداول الناس له ، وبقاءه بعدهم ، فإن ذلك محمود منهم .

فمجازاة المادح مستحسنة من الملوك ، ومنعهم مستقبح وضار : لأن ذلك يدعو إلى ذمهم .

وذمهم يبقىٰ أيضاً على الدهر ، فينشر لهم ذكراً قبيحاً ، وذلك مكروه للملوك والرؤساء .

وأما أصاغر الناس ، فمحبتهم جزاء المادح محمودة ، فإنه إذا مدح الدنيء من الناس فإنما يخدعه ، فإذا أجازه اعتقد أنه استرق منه تلك الجائزة .

وكثير من الناس إذا مدحوا بما ليس فيهم : يبادرون إلى مجازاة

---

(١) ليفرغوا أنفسهم لما فرغوا أنفسهم له ، وذلك في الأزمنة التي كان الإسلام فيها مالكاً للأمور .

المادح ، فيكونون قد وضعوا الشيء في غير موضعه ، وهم إذا صرفوا ذلك الشيء إلى الضعفاء ، وأهل المسكنة كان أجمل بهم وأليق .

ومنها : الزهد ، وهو : قلّة الرغبة في الأموال والأعراض[1] والإدخار ، والقنية ، وإيثار القناعة بما يقيم الرمق ، والاستخفاف بالدنيا ومحاسنها ولذاتها ، وقلّة الاكتراث بالمراتب العالية ، واستصغار الملوك وممالكهم ، وأرباب الأموال وأموالهم ، وهذا الخلق مستحسن جداً ، ولكن من العلماء والرهبان ورؤساء الدين والخطباء والواعظين ، ومن يرغب الناس في المعاد والبقاء بعد الموت .

وأما الملوك والعظماء ، فإن ذلك غير مستحسن منهم ، ولا لائق بهم ، لأن الملك إذا أظهر الزهد ، فقد صار ناقصاً ، لأن ملكه لا يتم إلّا باحتشاد الأموال والأعراض[2] وإدخارها ، ليذب بها عن ملكه ، وصار معدوداً من جملة النقص من الملوك الحائدين عن طريق السياسة .

فهذه الأقسام التي ذكرناها ، هي أخلاق جميع الناس .

أما المحمود منها ، المعدود فضائل ، فقلما تجمع كلها في إنسان واحد .

وأما المذموم منها ، المعدود نقائص ومعايب ، فقلما يوجد إنسان يخلو من جميعها ، حتى لا يكون فيه خلق مكروه وخاصة ، من لم يرض[3] نفسه ويؤدبها ، فإن لم يتعمل لضبط نفسه ، ويفتقد من عيوبه ، لم يخل من عيوب كثيرة ، وإن لم يحسن بها ، ولم يفطن لها ، فإن كان الأمر على ما ذكرنا ، كان الأجدر بالإنسان أن يتفقد أخلاقه ، ويتأمل عيوبه ، ويجتهد في إصلاحها ، وينفيها عن نفسه ،

---

(١) ، (٢) جمع عرض، بفتح العين والراء .
(٣) بفتح الياء وضم الراء .

ويتبع الأخلاق المحمودة ، ويحمل نفسه على اعتيادها والتخلق بها فإن الناس إنما يتفاضلون على الحقيقة بفضائلهم ، لا كما يعتقد الجهال والعامة : أنهم يتفاضلون بأحوالهم وأموالهم ، وكثرة الذخائر والأعراض ، فإن أكثر الناس إنما يتفاخرون بالذخائر والأموال ، والآلات ، ويعظمون أبداً الأغنياء وذوي الأحوال ، ولا يترتب بعضهم على بعض إلاَّ بكثرة الأموال ، وبالجاه المكتسب بالمال .

وليس كثرة الأموال ، مما تتفاضل بها أحوال الناس ، فأما نفوسهم ، فليس تكون أفضل من نفوس غيرهم ، بكثرة الأموال .

وذلك أن الفاجر السفيه الجاهل الشرير ـ وإن حوى أموالاً عظيمة ـ فليس يكون أفضل من الضعيف الحكيم العالم الخبير ، وإن كان فقيراً .

بل إنما يكون بكثرة الأموال أغنى منه ، فأما في الفضل فليس يكون أحد أفضل من أحد إلاَّ بكثرة الفضائل فقط .

فإن اجتمع للإنسان ، مع أخلاقه الجميلة والعادات المستحسنة ـ الغنى والثروة ، فلعمري أنه يكون أحسن حالاً من الفاضل المقتر ، لأنه من سعادات الإنسان أيضاً ـ وخاصة إذا كان فاضلاً ، عادلاً ، عفيفاً ، وأنه يصرف ماله في وجوهه ، وينفقه في حقوقه ، ويتفقد به من يجب تفقده ، ويسعف به أهل المسكنة ، ولا يقعد عما يجب فأرق صاحبه (و) سقطت منزلة صاحبه من نفوس الناس ، وساوى العامة والسوقة لأنه إذا رأس بالمال المعظم له هو ماله : لا نفسه ، فإذا زال ذلك المال ، لم يبق له شيء يعظم من أجله[1] .

---

(١) يقصدالشيخ (رحمه الله ورضي عنه) : إنه إذا عظم الناس صاحب مال أو سلطان ، فإنما يعظمون ماله أو سلطانه ، بدليل أنه إذا ذهب المال أو السلطان رجع كما كان ، غير معظم ولا محترم ـ ولعل في الجملة سقطاً أو تحريفاً في الطبعة الأولى ـ والله أعلم .

وليس كذلك الفاضل النفس ، المهذب الأخلاق ، فإن هذا رئاسته بفضائله ، وفضائله غير مفارقة له ، فهو رئيس ما دام[1] ومعظم لذاته لا لشيء من خارج ، ولأن الراغب في سياسة نفسه ، المؤثر تهذيب أخلاقه ، إذا نبه على خلق مذموم يجده في نفسه ، وأحب اجتنابه ، ربما صعب الانتقال عنه من أول وهلة ، وربما لم ينل التخلص منه ، ولم يطاوعه طبعه ، وربما استحسن أيضاً خلقاً محموداً لا يجده لنفسه ، وأثر التخلق به ، ولم تستجب له عادته ، ولم يصل إلى مراده ، فوجب أن نرسم للراغبين في السياسة المحمودة طرقاً يتدربون بها ، ويتدرجون فيها ، حتى ينتهوا إلى مرادهم من اعتياد الأخلاق الجميلة ، والأنطباع بها ، وتجنب الأخلاق القبيحة والتفرغ منها فنذكر من أجل ذلك :

(١) يعني : مدة دوامه .

في طريق الارتياض بالأخلاق والتعمل لاعتيادها

وقد ذكرنا فيما تقدم : أن سبب اختلاف الأخلاق في الناس ، هو اختلاف قوى النفس الثلاث فيهم : وهي : الشهوانيّة ، والغضبية والناطقة .

وإن ملاك الأخلاق ، هو تذليل الشهوانية منها ، والغضبية ، وتمييز عادات النفس الناطقة ، واستعمال المحمود من أفعالها .

وطريق التدريج لاستعمال العادات الجميلة ، والعدول عن العادات المستقحبة ، هو التدرج في تذليل هاتين القوتين .

* * *

أما النفس الشهوانية فالطريق إلى قمعها أن يتذكر الإنسان في وقت شهواته ، وعند شدة القدوم إلى لذاته ، أنه يريد تذليل نفسه الشهوانية ، فيعدل عما تاقت نفسه إليه من الشهوة الردية إلى ما هو مستحسن ، من جنس تلك الشهوة ، متفق على ارتضائه ، فيقتصر عليه .

فإن بذلك الفعل تنكسر شهوته ثم يعللها ويعدها ، فإن سكنت ، وإلاّ عاود الفعل من الوجه المستحسن ، فإنه إذا فعل ذلك وتكرر

فعله ، كفت النفس ، وإن استمر على هذه الحالة ألفت النفس هذه العادة ، وأنست بها ، واستوحشت مما سواها .

وينبغي ـ لمن أراد قمع نفسه الشهوانية ـ أن يكثر من مجالسة الزهاد والرهبان(١) والنساك وأهل الورع والواعظين ، ويكرم مجالسة الرؤساء وأهل العلم ، فإن الرؤساء ـ وخاصة رؤساء الدين ـ يعظمون من كان معروفاً بالعفة ويستزرون من كان فاجراً متهتكاً .

وملازمته لهذه المجالس تضطره إلى التصون ، والتعفف ، والتجمل لأولئك لئلا يستزروه ويغضوا منه ، وليلق برتبة من يعظم في المحافل .

وينبغي له أيضاً أن يديم النظر في كتب الأخلاق والسياسة ، وأخبار الزهاد والرهبان ، والنساك ، وأهل الورع ، ويجب عليه أن يتجنب مجالس الخلعاء والسفهاء ، والمتهتكين ، ومن يكثر الهزل واللعب .

وأكثر ما يجب عليه : تجنب السكر ، فإن السكر من الشراب يثير نفسه الشهوانية ، ويقويها ، ويحملها على التهتك وإرتكاب الفواحش ، والمجاهرة بها ، وبذلك إن الإنسان إنما يرتدع عن القبائح بالعقل والتمييز ؛ وإذا سكر عدم ذلك الذي كان يردعه عن الفعل القبيح ، فلا يبالي أن يرتكب كل ما كان يتجنبه في صحوه .

فأولى الأسباب لمن طلب العفة هجر الشراب بالجملة ، وإن لم

---

(١) يقصد الشيخ(رحمه الله)بذكره الرهبان : الملتزمين منهم بحدود التوراة والإنجيل الّذين نـزلا من عند الله ـ ولعل في قول الله تبارك وتعالى ﴿إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل﴾ إشارة إلى ذلك ، فإن قوله ـ كثيراً ـ يفيد أن فيهم أيضاً أناساً لا يفعلون ذلك ، لأنه لم يقل ـ إن الأحبار والرهبان ـ بل عبر جلّ وعلا بـ «كثيراً» وهذا النوع غير موجود الآن . والله أعلم .

يمكنه ، فليقتصر على اليسير منه[1] ويكون في الخلوات ، أو مع من لا يحتشمه ، ويتجنب مجالس المجاهرين بالشراب والسكر ، والخلاعة ، ولا يظن أنه إن حضر تلك المجالس ، واقتصر على اليسير من الشراب : لم يستضر به ، فإن هذا غلط[2] .

وذلك أن من حضر مجالس الشراب ، ليس تنقاد له نفسه إلى القناعة بيسير الشراب ، بل إن حضر مجالس الشراب ، وكان في غاية العفة ، تاركاً للشراب ، متمسكاً بالورع ، حملته شهوته على التشبه بأهل المجلس ، وتاقت نفسه إلى الفعل لما هو أكثر من ذلك ، وتهتك بعد الستر والصيانة .

فسيمة أحوال من طلب العفة : عدم حضور مجالس الشراب ومخالطة أهلها والاستكثار من معاشرتهم .

وينبغي : لمن أراد قمع نفسه الشهوانية أن يقل من استماع السماع ، وخاصة النسوان والشابات منهن ، المتصنعات ، فإن للسماع قوة عظيمة في اثارة الشهوة ، فإذا انضاف إلى ذلك : أن تكون المسمعة مشتهاة متعلمة[3] لاستمالة العيون إليها : اجتمع على السماع حوادث كثيرة ، فربما لم يستطع دفع جميعها عن نفسه ، والأولى لمن هم بقهر الشهوة : أن يتجنب السماع ، وإن لم يكن منه بد ، ولم تستجب نفسه إلى هجره بالكلية ، فليقتصر على استماعه من الرجال ، ومن لا مطمع للشهوة فيه ، والإقلال منه خير وأصون للمتعفف .

فأما الطعام ، فينبغي أن يعلم أن غايته هو : الشبع ، لدفع ألم الجوع ، فخير الطعام وردية جميعاً مشبعان ، فليس للمبالغة في تجويد الطعام كبير حظ .

---

(١) استدراجاً لنفسه ، حتى تنتهي بالمرة ، وفي كلامه بعد إشارة إلى ذلك أنظر ص ٥٥ .

(٢) أي إن الخمر ولو قليلة فيها الخطر ولا بد .

(٣) طرق الضرب والإيقاع .

والأولىٰ هو التوسط في أنواع المآكل ، وأن يكون في الجنس الذي نشأ عليه الإنسان ، واعتاده وألفه ، على أن شهوة الطعام والنهم فيه ، وإن كان من الأخلاق الرديئة فهو أسهلها وأهونها ، وليس يكسب صاحبها من العار ما يكسبه محبة الشراب والمباضعة ، ومعاشرة النسوان ومصاحبة الأحداث ، المتهيئين للفواحش ، فإن ذلك في غاية القبح ، وشهوة المآكل أقل قبحاً منه ، وأخف على فاعله ، وهو مع ذلك قبيح ، والاستهتار به وكثرة النهم والشره إليه مكروه ، وطريق التدرج إلى الاقتصاد في الطعام ، هو : أن يبادر ذو الشهوة إلى أي شيء وجده من المأكل ، فإن كان المشتهي الذي تاقت نفسه إليه حلوا فإلى أي حلاوة وجدها ، وإن كان غير ذلك ، فإلى ما يشابهه في الطعم فإنه إذا تناول من الطعام ما يشبهه ذلك المشتهي في الطعم ، فإن شهوته تسكن ، ونفسه تكف .

وينبغي لمن أحب العفة أن يكون أبداً متيقظاً ، ذاكراً لما يلحق الفاجر والنهم والشرة والمتهتك من القباحة والعار ، ويجعل ذلك ديدنه وشعاره ، فإن نفسه تبغض الشهوات ، وتشتاق إلى التعفف والقناعة ، وتطرب عند العدول عن الفواحش ، مع القدرة عليها ، وترتاح لما ينشر عنها ، ويبلغها عن الناس من الثناء الجميل على صاحبها .

فهذا الذي ذكرنا هو : طريق رياضة النفس الشهوانية ، وتذليلها وقمعها ، وهو طريق الارتياض بالمعادات المحمودة المرضية ، فيما يتعلق بالشهوات واللذات .

فأما النفس الغضبية فإن الطريق في قمعها وتذليلها هو : أن يصرف الإنسان همته إلى أن يتفقد السفهاء الذين يسرع إليهم الغضب في أوقات طيشهم وحدتهم وتسفههم على خصومهم ، وعقوبتهم لخدمهم وعبيدهم ، فإنه يشاهد منهم منظراً شنيعاً ، يأنف منه الخاص والعام ، فإن تذكر ما شاهد في أوقات غضبه ، وعند جنايات خدمه

وعبيده ، وعند ذنوب إخوانه وأودائه ، وفي جميع محاوراته ومعاملاته ، فإنه إذا تذكر ما كان استقبحه من السفهاء : انكسرت بذلك سورة[1] غضبه ، وأحجم عماهم بالإقدام عليه من السب والوثوب ، فإن لم يكف بالكلية أقصر ، ولو أنه غاية الفحش .

وينبغي لمن أراد أن يقهر نفسه الغضبية ، أن يذكر أوقات غضبه على من يؤذيه ، أو يجني عليه ، أنه لو كان هو الجاني : ما الذي كان يستحق على جنايته ؟

فإنه بهذا الفعل يعتقد أن درك تلك الجناية ، أو أرش[2] ذلك الأذى : يسير جداً .

فإذا اعتقد ذلك ، كانت مقابلته للجاني ، والمؤذي ، بحسب اعتقاده ، فلا يسرف في الإنتقام ، ولا يفحش في الغضب .

فإذا فعل ذلك دائماً ، وجعله ديدناً ، وتفقد معائب السفهاء ، ومن يسرع إليه الغضب ، لم يبعد أن تنكسر نفسه الغضبية وتناقد ، فإذا استمر على ذلك مدة : صار خلقاً وعادة .

وينبغي لمن يرغب في تذليل نفسه الغضبية أن يتجنب حمل السلاح ، وحضور مواضع الحروب ، ومقامات الفتن ، ومجالسة الأشرار ، ومعاشرة السفهاء ، ومخالطة الشرط ، فإن هذه المواضع تكسب القلب قساوة وغلظة ، وتعدمه الرأفة والرحمة ، فتقسوا لذلك نفسه الغضبية .

فإذا كان يريد تذليلها وتسكينها ، وجب أن يجعل مجالسته لأهل العلم ، وذوي الوقار ، والشيوخ ، والرؤساء ، والأفاضل ، ومن يقل غضبه ، ويكثر حلمه ووقاره .

---

(١) بفتح السين المهملة وسكون الواو : شدة الغضب .

(٢) دية الجراحات .

وينبغي لـه أيضاً : أن يتجنب المسكـر من الشراب ، فـإن السكـر يهيج النفس الغضبية أكثر مما يهيج الشهوانيـة ، وبذلـك ربما يسـرع إلى العـربدة ، والـوثوب على جلسـائـه ، والاستخفـاف بهم وسبهم ، وذكـر أعراضهم ، بعد أن كان يتحنن عليهم ، ويتودد إليهم .

ولا يكـون بين الـوقتين إلاّ بمقــدار مـا يستحكم عليــه السكـر ، فـالسكـر مثيـر للقـوة الغضبيــة ، ومقـولهــا ، فمن أراد أن تسكن نفســه الغضبية ، فلا بد أن يتجنب المسكر .

وإن تمكنِ من هجـران الشـراب ألبتـة ، فهـو أصلح لقهـر النفس الغضبية والشهوانية ـ جميعاً .

وينبغي لمن أراد تـذليل قـوته الغضبيـة والشهوانيـة أن يستعمل في جميـع ما يفعله الفكـر ، ولا يقدم على الشيء إلاّ بعـد أن يتروي فيـه ، ويجعل الفكرة واتبـاع الرأي ديـدنه وعـادته . فـإن الرأي وجـودة الفكر ، يقبحـان له السفـه وسرعـة الغضب ، والإنهمـاك في الشهـوات ، واتبـاع اللذات ، فـإذا استقبح ذلـك احجم عنه ، وعـدل إلى ما يقتضيـه الـرأي والفكـر ، وإن لم يرتـدع بالكليـة ، فلا بـد أن يؤثر ذلـك فيـه ، فيقتصـر عما يريد الشروع فيه .

ومــلاك الأمـر في «تهــذيب الأخـلاق» وضبط النفس الشهــوانيـة والنفس الغصبية هي تقوية النفس الناطقـة فإن بهـذه النفس تكون جميـع السياسات .

وهذه النفس إذا قويت متمكنة من صاحبهـا أمكنة : إن يسـوس بها قـوتيه البـاقيتين ، ويكف نفسه عن جميـع القبائـح ، ويتبـع أبـداً مكـارم الأخلاق ، وإذا لم تكن هذه النفس قـوية في صـاحبها ، وكـانت مقهورة خـافتة ، فـأول ما ينبغي أن يعتمـده في سياسـة أخلاقـه أن يـروض هـذه ويقويها ، وتقـوية هـذه النفس إنما يكـون بالعلوم العقلية ، فـإنه إذا نـظر في العلوم العقلية ودقق النـظر فيهـا ودرس كتب الأخـلاق والسيـاسـة ،

وداوم عليها تيقظت نفسه ، وتنبهت ، وانتعشت من خمولها ، واحست بفضائلها ، وأنفت من رذائلها ، وذلك أن هذه إنما تضعف وتحفت إذا عدمت الفضائل والمناقب ، واستولت عليها الرذائل ، فإذا اقتنت الفضائل ، واكتسبت الآداب ، تيقظت من غشيتها ، وثارت من سكرتها ، وقويت بعد ضعفها .

وفضائل هذه النفس هي : العلوم العقلية ، وخاصة ما دق منها ، فإذا أرتاض الإنسان بالعلوم العقلية شرفت نفسه ، وعظمت همته ، وقويت فكرته ، وتمكن من نفسه ، وتملك أخلاقه ، وقدر على إصلاحها ، وإنفاد له طبعه ، وسهل عليه تهذيبه ، واذعنت له القوة الغضبية والشهوانية ، وهان عليه قمعها وتذليلها .

فأول ما ينبغي أن يبتديء به من يحب سياسة أخلاقه : النظر في كتب الأخلاق ، والسياسة ، ثم الإرتباض بعلوم الحقائق ، فإن أشرف ما تكون النفس إذا أدركت حقائق الأمور ، وأشرفت على هيئات الموجودات .

وإذا شرفت نفس الإنسان وعلت همته : ترقى إلى مراتب أهل الفضل .

ومما يصلح النفس الناطقة ويقويها أيضاً : مجالسة أهل العلم ، ومخالطتهم ، والإقتداء بأخلاقهم وعاداتهم ، وخاصة أصحاب علوم الحقائق ، والمتيقظين منهم ، المستعملين في جميع أمورهم ما تقتضيه علومهم ، وتوحيه عقولهم .

فأما تمييز عادات النفس الناطقة ، واستعمال ما حسن منها واطراح ما قبح ، فذلك إنما يمكن ويسهل أيضاً إذا راض نفسه الناطقة فإن النفس الناطقة إذا ارتاضت بالعلوم الحقيقية ، وتيقظت ، وشرفت : أنفت من العادات المستقبحة وتنزهت عن التدنس بها ، فيهون حينئذ على صاحبها تجنب ما يكره من عاداتها ، ويتغلب عليه استحسان

الأخلاق الجميلة ، والتخلق بها ، وقد تبين من جميع ما ذكرنا : إن طريق الارتياض وبالأخلاق المحمودة : المرضي منها ، والتصنع لاعتيادها ، واتباع المحمود المرضي منها ، واجتناب المذموم والمستقبح .

وتذليل قوة الشهوة الغضبية ، وضبطها وقهرها هو : إصلاح النفس الناطقة وتقويتها ، وتحليتها بالفضائل والآداب والمحاسن ، فإن ذلك هو آلة السياسة ، ومركب الرياضة ، ومن لم يتمكن من إكتساب العلوم العقلية والإمعان فيها ، أو تعذر عليه ذلك ، فليبذل جهده في تدقيق الفكر ، ومجاهدة النفس ، وتمييز ما بين عاداته القبيحة والجميلة ، وينظر أيها اجدى عليه ، وأيها أنفع له ، وأيها أحمد عاقبة وأبقىٰ على الأيام ، فإنه إذا صدق نفسه ، وجد شهواته ولذاته إنما هي ملذة وقت استعمالها فقط ، فأما بعد مفارقتها ، فليست باقية عليه ، ولا نافعة له ويجد عارها وشينها باقياً على الدهر ، متداولاً بين الناس يعاب به ويزري عليه بقبحه .

وكذلك شدة الغضب ، والتسرع إلى الانتقام والسب ، والفحش ، فإنه إذا انجلت غمرته[1] ، وسكنت سورته[2] ، وتأمل أمر ما فعله : وجده قبيحاً ، ولم يجده مجدياً ولا مفيداً .

وقد صار ما فعله عند الغضب نقيصة يوسم[3] بها ، ومعرة يسب بها .

وربما ارتكب في الغضب جنايات ، يعاقب عليها ، ويؤدب من أجلها .

---

(١) الغمرة : بفتح الغين المعجمة : وسكون الميم : الشدة .
(٢) شدة الغضب .
(٣) الوسم : العلامة .

وكذلك العادات المكروهة من عادات النفس الناطقة أيضاً يجدها غير نافعة ولا مجدية .

وذلك إن : الحسد ، والحقد ، والخبث ، وأمثال هذه : لا ينتفع بها صاحبها ، وإن انتفع بالخبث والشر ، فشر منفعة .

ومع ذلك هو : ضار له ، فإن من تشرر : قصده الناس واستعدوا لأذيته وتصدوا للاضرار به ، وتوقوه ، واحترزوا منه ، وكرهوا نفعه ، وقصروا وجوه الخير عنه ، واجتهدوا في ذلك .

وما أسوأ حال من هذه صفته ، فمستعمل الشر والخبث سيىء الحال ، يضره شره أكثر مما ينفعه .

فإذا حاسب الإنسان نفسه ، وأجال فكره ، وتمييزه : علم أن الضرر في مساوىء الأخلاق أكثر من النفع ، وأن الذي يعده منها نفعاً ليس هو بنفع على الحقيقة ، وهو يسير جداً غير باق ، ولا مستمر .

فإن هذا اليسير الذي يعده نفعاً لا يفي بالضرر الكثير ، والعار الدائم المتصل .

ويعلم أيضاً أن : الشر والخبيث يجلبان عليه الشر ، ويوحشان منه الناس .

فإذا أدام ذلك ، وأكثر منه ، قوى في نفسه اتباع محاسن الأخلاق ، ومسهل عليه اطراح مساوئها ومقابحها ، وغلب عليه الخير والسداد ، وفرغ من العيب والعار .

فإذا فعل ذلك دائماً : لم يلبث أن يصلح أخلاقه ، ويحسن طريقته ، ويهذب شمائله ، ويلحق برتبة أهل الفضل ، ويتميز عن أهل الدنس والنقص .

وينبغي لمن أراد سياسة أخلاقه . أن يجعل غرضه من كل

فضيلة : غايتها ونهايتها ، ولا يقنع منها بما دون الغاية ، ولا يرضى إلاَّ بأعلى درجة ، فإنه إذا جعل ذلك غرضه ، كان حرياً أن يتوسط في الفضائل ، ويبلغ منها رتبة مرضية ؛ إن فاتته الدرجة العالية .

فأما إن قنع بالتوسط : لم يأمن أن يقصر عن بلوغه ، فيبقى في أدون المراتب ، ويفوته المطلوب ، فلا يطمع أبداً في التمام .

فهذا الذي ذكرنا ، هو طريق الارتياض بمكارم الأخلاق ، ومنهج التدرج في محمود العادات .

فإذا أخذ الإنسان نفسه به ، وأكثر مراعاته ، وتعهده، صار له أمر الفضائل ديدناً ، والمحاسن له خلقاً وطبعاً .

وقد بقي علينا أن نذكر :

في أوصاف الانسان التام الجامع لمحاسن الأخلاق وطريقته التي بها يصل إلى التمام

فنقول : الإنسان التام ، هو الذي لم تفته فضيلة ، ولم تشنه رذيلة ، وهذا الحد قلما ينتهي إليه إنسان .

وإذا انتهى الإنسان إلى هذا الحد ، كان بالملائكة أشبه منه بالناس .

فإن الإنسان مضروب بأنواع النقص ، مستول عليه وعلى طبعه ضروب الشر ، فقلما يخلص من جميعها حتى تسلم نفسه من كل عيب ومنقصة ، ويحيط بكل فضيلة ومنقبة .

إلاَّ أن التمام ـ وإن كان عزيزاً بعيد التناول ـ فإنه ممكن ، وهو غاية ما ينتهي إليه الإنسان ، ونهاية ما هو منته له .

وإذا صدقت عزيمة الإنسان وأعطى الاجتهاد حقه كان قميناً(١) بأن ينتهي إلى غايته التي هي منتهى له ، ويصل إلى بغيته التي تسموا نفسه إليها .

فأما تفصيل أوصاف الإنسان التام ، فهو : أن يكون متفقداً لجميع أخلاقه ، متيقظاً لجميع معايبه ، متحرزاً من دخول كل نقص

(١) يعني : جديراً .

عليه ، مستعملاً لكل فضيلة ، مجتهداً في بلوغ الغاية ، عاشقاً لصورة الكمال ، ملتذاً بمحاسن الأخلاق ، متيقظاً لمذموم العادات ، معتنياً بتهذيب نفسه ، غير مستكثر ما يقتنيه من الفضائل ، مستعظماً لليسير من الرذائل ، مستصغراً للرتبة العليا ، مستحقراً للغاية القصوى ، يرى التمام دون محله ، والكمال أقل أوصافه .

فأما الطريقة التي توصله إلى التمام ، وتحفظ عليه الكمال فهي : أن يصرف عنايته إلى النظر في العلوم الحقيقية ، ويجعل غرضه الإحاطة بماهيات الأمور الموجودة ، وكشف عللها وأسبابها ، وتفقد غاياتها ، ولا يقف عند غاية من علمه إلاَّ ورنا[1] بطرفه إلى ما فوق تلك الغاية ، ويجعل شعاره ـ ليله ونهاره ـ قراءة كتب الأخلاق ، وتصفح كتب السير ، والسياسات ، وأخذ نفسه باستعمال ما أمر أهل الفضل باستعماله، وأشار المتقدمون من الحكماء باعتياده ، وينشد أيضاً طرفاً من أدب البيان والبلاغة ، ويتحلى بشيء من الفصاحة ، والخطابة ، ويغشى أبداً مجالس أهل العلم والحكمة ، ويعاشر دائماً أهل الوقار والعفة .

هذا إن كان رعية وسوقه .

فإن كان ملكاً ورئيساً ، فينبغي أن يجعل جلساءه ومنادميه وغاشته[2] والمطيفين به : كل من كان معروفاً بالخير والسداد ، موصوفاً بالأدب والوقار ، مخصصاً بالعلم والحكمة ، محققاً بالفهم والفطنة ، ويقرب مجالس أهل العلم ، وينشطهم ، ويكثر مجالستهم والأنس بهم ، ويجعل تفرجه وتفكهه مذاكرتهم في العلم وفنونه ، وسياسة الملك ورسومه ، وأخبار الحكماء وأخلاقهم ، وسير الملوك الأخيار وعاداتهم .

---

(١) رنا : أدام النظر .

(٢) بفتح الشين المعجمة والتاء الخفيفة : أي من يغشاه .

وينبغي للإنسان التام ، ولمن طلب طريقته التي بها يصل إلى التمام : أن يجعل لشهواته ولذاته قانوناً راتباً ، يقصد فيه الاعتدال ، ويجتنب السرف والإفراط ، ويعتمد من الشهوات واللذات المعتمدة له : ما كان من الوجوه المرتضاة المستحسنة ، ويأخذ نفسه بذلك ، ويحض عنها الطبع ، ويهجر أصحاب اللذات ومعاشرتهم ، وينقبض عن الخلفاء[1] ومخالطتهم ، ويشعر نفسه أن الشهوة عدو مكاشح[2] ، وخصم مكافح ، يريد أبداً ضرورة وأذيته ، ويعتمد شينه وفضيحته ، فيناصب شهوته بالعداوة ، ويكاشفها بالمعاندة ، ويقمع أبداً سورتها ، ويكسر دائماً حدتها ، ويقهر سطوتها ، ويذلل ـ على التدريج ـ عزتها ، ويسكن ـ على الترتيب ـ فورتها .

فإنه إذا فعل ذلك : كان خليقاً أن يملك نفسه ، وتنقاد له شهوته ، وتنطبع بالعفة ، وتألف حسن السيرة .

ومتى أرخى لشهوته عنانها ، وسمح لها في مرادها ، وأهمل سياستها ومراعاتها ، واستطالت وشمخت ، ولم تلبث أن توهن صاحبها ، وتقوده ، وتحمله على ما يسوؤه ، ويعره[3] فيصير بذلك بعيداً من التمام ، غير طامع في الكمال .

وينبغي لمن يطلب التمام ، أن يعلم أنه لا سبيل له إلى بلوغ غرضه ما دامت اللذة عنده مستحسنة ، والشهوة مستحبة ، وهذه الحال صعبة جداً ، متعسرة على طالبها ، بعيدة المأخذ ، وهي على الملوك والرؤساء أصعب وأبعد ، لأن الملوك والرؤساء أقدر على اللذات ،

---

(١) يقصد خلفاء السوء ، أو الخلفاء والملوك الذين كانوا في عهده ، فإن أيديهم كانت أقرب إلى السيف منها إلى النعمة وقد أصابه منهم أذى كثير والله تعالى أعلم .

(٢) مكاشح : لاصق بكشحه ، والكشح : ما بين الخاصرة إلى الضلع . وهو تعبير عن شدة القرب .

(٣) أي يلصق به الفضيحة .

وأشـد تمكنـاً ، والشهــوات واللذات لـديهم معــروضـة ، ولهم سجيــة وعادة ، فمفارقتهـا عليهم متعذرة ، وإعـراضهم عنها كـالشيء الممتنع ، خاصة لمن قد نشأ على الانهماك فيها ، والتوفر عليها .

إلَّا أن الملوك ـ وإن كـانوا أقـدر على اللذات وأكثـر اعتيـاداً لهـا فهم أعـظم هممـاً ، وأعـز نفوسـاً ، والمحصل منهم إذا سمت نفسـه إلى التمام الإنساني ، واشتاقت إلى الرئـاسة الحقيقيـة ، علم أن الملك أحق أن يكون أتم أهل زمـانه ، وأفضـل أعوانـه ورعيته ، فيهـون عليه مفـارقة الشهوات ، وهجر اللذات الدنية .

وينبغي لمن رغب في سيـاسة أخـلاقـه ، وسلك طـريق الاعتـدال في الشهـوات ، أن يجعـل (لهـا) قـانــونـاً يقتصـر عليـه في المـآكـل والمشـارب ، مقرونـاً بالكـرم ، وهـو أن لا يستبـد بـالمـأكـل والمشـرب وحده ، بل يقصد أن يشرك في مـا له من ذلـك إخوانـه وأوداءه ، إن كان رعبة وسوقه .

وإن كـان ملكاً رئيسـاً فيجمع عليـه حـاشيتـه ونـدمـاءه ، ويعم بـه أصحابه وأعوانه ، ويتفقـد بفضلاتـه[1] أهل الفقـر والمسكنة ، وخـاصة من سبقت له معرفـة به ، أو تقـدمت له خـدمة ، فيصـرف إلى حاجـاتهم من عنايته ، فإن اعتداد هؤلاء بمـا يصل إليهم من بـره ، أكثر من اعتـداد حـاشيته وأصحـابه ، وليـظهر لمن يجتمـع على مائـدته ، وعلى طعـامـه وشرابه ، من إخوانه وأصداقائـه ، ورعيته ونـدمائـه ـ وإن كان ملكـاً ـ أن جمعـه لهم للأنس بهم ، والسـرور بمعاشـرتهم ، لا ليكـرمهم بـطعـامـه وشرابه ، ولا أن لذلك قدراً يعتد به .

ويحتــرز ـ كـل الاحتــراز ـ من أن يبـدو منــه امتنـان بـالـطعــام والشـراب ، أو تبجـح بـه ، فـإن ذلــك يـزري بفـاعله ، ويغض منه ، ويوحش من يغشاه ، ويقطعهم عنه .

---

(١) ما يفضل منه .

وقـد يستحسن من الإنسـان أيضـاً ـ إذا كـان مقـلاً ـ أن يـواسي بطعامه إخوانه ، وإن كان محتـاجاً إليـه ، ويستحسن منه أيضـاً أن يواسي به الفقراء والضعفاء ، وقد يستحسن منـه أيضاً أكثـر من ذلك ، بـأن يؤثر الإنسان بطعامه وشرابه غيره ، وإن كان شـديد الإضـطرار إليه ، وكـان لا يقدر على غيره .

وينبغي أيضـاً لمن طلب السيـاسـة التـامـة : أن يستهين بـالمـال ويحتقره وينظر إليه بالعين التي يستحقها .

فإن المال : إنمـا يراد لغيـره ، وليس هو مـطلوباً لـذاته ، فـإنه في نفسه غير نافع ، وإنما الانتفاع بالأغراض التي تنال به .

فـالمال آلـة تنال بهـا الأغـراض ، فـلا يجب أن يعتقـد أن اقتنـاءه وإدخـاره مفيد ، فـإذا أدخـر وحـرص عليـه : لم ينـل صـاحبـه شيئـاً من الأغراض التي هو بالحقيقة محتاج إليها .

فـالمـال هـو مـطلوب لغيـره ، فينبغي للسـديـد الـرأي ، العـالي الهمة ، أن يزنه بوزنه ، فيكسبه من وجهه ، ويفرقـه في وجهه ، ويكـون مـع ذلك ، غيـر متـوان في اكتسـابـه ، ولا مقـدم في طلبـه ، لأن عـدم المـال يضطره إلى التـواضع لمن هـو دونـه ، إذا وجـد عنـده حـاجتـه ، ووجود المال يغنيه عن : من هو فوقه ، وإن دنت منزلته .

ويكـون ـ أيضاً ـ غيـر مـدخـره ولا متمسـك بـه ، بـل يصـرفـه في حاجاته ، وينفقه في مهماته ، ويقصد الاعتدال في تفـريقه ، ويحـذر من السـرف والتبذيـر في تخريجـه ، ولا يمنع حقـاً يجب عليه ، ولا يصـرفه في شيء لا يحب ولا يشكر عليه .

وإذا فـرغ من حاجتـه ، واستكفىٰ من نفقاتـه ، وسد خلله[1] عـاد إلى النـظر في أمـره ، فـإن كـان بقي من مـالـه بقيـة فـاضلة عن مهم

(١) الخلل : بضم الخاء ، جمع خلة بفتح الخاء ، وهي : الحاجة .

أغراضه : أخرج منها قسطاً ، فجعله عنده يستظهر به لشدة ، و يعده لنائبة ، ثم عمد إلى الباقي وفرقه في ذوي الحاجة ، من أهله ، وأقاربه ، وإخوانه ، وأهل مودته ، وجعل فيه قسطاً للضعفاء والمساكين ، وأهل الفاقة المستورين ، وجعل اهتمامه بإفضاله وبره : أكثر من اهتمامه بضروراته ، فإن الضرورات تقوده كرهاً إليها ، وأكثر النوافل متى لم يهم بها ويشعر نفسه ألزامها : لم يسهل عليه فعلها ، لأن ضعف النفس وسوء الظن يصر فإنه عنها ، وإن لم يكن له جاذب من نفسه ، وداع قوى من همته ، لم يتقدم عليها ، وغلب عليه التواني ، فإذا توانىٰ عن البر والفضل : كان شحيحاً دنياً ، وليس بتام .

بل ليس بالحقيقة إنساناً من لم يكن له بر يعرف ، ولم تنتشر له أفعال توصف .

هذا إن كان من أوساط الناس .

فأما الملوك والرؤساء ، فإنهم أحق بهذه السياسة ، ويجب أن يكونوا بذلك أشد عناية ، فيجبو الأموال من حقها وواجبها ، ويصرفوا منها في نفقاتهم ومؤناتهم ، وأرزاق جندهم ، وأصحابهم تدر الكفاية ، من غير سرف ولا تقتير ، ويعدوا منها شطراً لخوف عاقبة ، ويصرفوا الباقي في طريق الكرم والجود ، ووجوه الخير والبر ، فيعطوا أهل العلم على طبقاتهم ، ويجعلوا لهم رواتب من خواص أموالهم ، ويدفعوا لمن هو مثابر على العلم والأدب ، ويبرو الضعفاء والمساكين ، ويتفقدوا الغرباء ، ويهتموا بالزهاد وأهل النسك ، ويخصوهم بقسط من أفضالهم وإنعامهم ، ويعتنوا بالصغير والكبير ، وينفقوا في مصالحهم شطراً من أموالهم ، فإن الملوك أولى بالكرم من الرعية ، وأحق بالجود من العامة .

وقد يستحسن أيضاً من الملقين[1] والمقترين : المواساة بالمال

(١) بفتح الميم وكسر اللام والقاف .

والإيثار به ، وإن كانوا محتاجين إليه ، وكلما كانت حاجتهم أشد ، كان ذلك الفعل حسناً ، وهذه الحال مستحسنة ، إذا رأى الرجل أخاً من إخوانه ، أو صديقاً يختص به ، وقد دعته الحاجة إلى ما لا يقدر عليه لإصلاح شيء من شأنه ، أو لدفع محنة نزلت به ، وكان هو قادراً على ذلك القدر من المال ، فيبتدي بإسعافه : عفواً من غير مسألة .

وإن فعل هذا الفعل مع الغريب الذي لا يعرفه ، ولم تسبق له حرمة ولا مودة ، كان جميلاً مستحسناً .

وينبغي لمحب الكمال : أن يشعر نفسه أن الغضبان بمنزلة البهائم والسباع : يفعل ما يفعله من غير علم ، ولا روية .

فإذا جرى بينه وبين غيره محاورة : أدت إلى أن يغضب خصمه ويتسفه عليه : اعتقد فيه أنه في تلك الحالة بمنزلة البهائم والسباع ، فيمسك عن مقابلته ، ويحجم عن الاقتصاص منه ، ألا يعلم أن الكلب لو نبح عليه ، لم يكن يستحسن مقابلته على نبحه ؟ وكذلك البهيمة لو رمحته ، لم يستحسن عقوبتها ، ؟ لأنها غير عالمة بما تصنعه ، إلاَّ أن يكون جاهلاً ، فإن من السفهاء من يغضب على البهيمة إذا رمحته ، ويوجعها ضرباً إذا آذنه ، وربما عثر السفيه فشتم موضع عثرته ، ورفسه برجله .

فأما الحليم الوقور ، فلا يستحسن شيئاً من ذلك ، وإذا استشعر في خصمه أنه بمنزلة البهائم : صار هذا الاستشعار منه طريقاً إلى ضبط النفس الغضبية ، وزمها[1] وأن أذاه مؤذ بغير سفه . فيؤدي ذلك الأذى إلى حال يغضبه ، أنف أيضاً من الغضب ، مع استشعاره أن الغضبان والبهيمة سواء ، فيعدل حينئذ إلى مقابلة مؤذية بما يقتضيه الرأي ، من حيث لا يظهر فيه غضب ولا سفه .

---

(١) الزم : بالزاي ، هو شد الزمام (المفقود) مأخوذ من زم البعير : إذا خطمه .

وينبغي لمحب الكمال أيضاً أن يعود نفسه محبة الناس اجمع ، والتودد إليهم ، والتحنن عليهم ، والرأفة والرحمة بهم ، فإن الناس قبيل واحد ، متناسبون ، تجمعهم الإنسانية ، وحلية القوة الإلهية هي في جميعهم ، وفي كل واحد منهم ، وهي النفس العاقلة ، وبهذه النفس صار الإنسان إنساناً ، وهي أشرف جزئي الإنسان : الذين هما : النفس والجسد ، والإنسان بالحقيقة هو[1] : النفس العاقلة ، وهي جوهر واحد في جميع الناس ، وكلهم بالحقيقة شيء واحد ، والأشخاص كثيرون .

وإذا كانت نفوسهم واحدة ، والمودة إنما تكون بالنفس ، فواجب أن يكونوا كلهم متحابين متوادين ، وذلك في الناس طبيعة ، لو لم تقدهم النفس الغضبية ، فإن هذه النفس تحبب لصاحبها الترأس ، فتقود صاحبها إلى الكبر والإعجاب والتسلط على المتضعف ، واستحقار الصغير ، وحسد الغني وذي الفضل ، فتنشأ من أهل هذه الأسباب : العداوات ، وتتأكد البغضاء بينهم ، فإذا ضبط الإنسان نفسه الغضبية ، وإنقاد لنفسه العاقلة صار الناس كلهم له أحباباً ، وإخواناً .

وإذا أعمل الإنسان فكره : رأى ذلك واجباً ، لأن الناس إما أن يكونوا فضلاء ، أو نقصاء .

فالفضلاء تجب عليه محبتهم لموضع فضلهم ، والنقصاء تجب عليه رحمتهم لموضع نقصهم .

فيحق لمحب الكمال : أن يكون محباً لجميع الناس ، متحنناً عليهم رؤوفاً بهم ، وخاصة الملك والرئيس ، فإن الملك ليس يكون ملكاً ما لم يكن محباً لرعيته ، رؤوفاً بهم ، وذلك أن الملك ورعيته بمنزلة رب الدار ، وأهل داره ، وما أقبح رب الدار أن يبغض أهل داره ، ولا يتحنن عليهم ويحب مصالحهم .

---

(١) في الأصل : «هي» .

وينبغي لمحب الكمال أن يجعل همته فعل الخير مع جميع الناس، وإنفاق ما يفضل من ماله فيما يبقى له الذكر الجميل بعد موته، ويتحرز من فعل الشر ، فإنه إذا حاسب نفسه : علم أن من فعل الشر فإنه يفعله لخير لا يعتقد[1] أنه يصل إليه ، وربما كان غالطاً .

وإذا علم أن الأمر على هذه الصفة كان واجباً عليه أن يطلب الخير الذي يرومه من طريق غير طريق التشرر ، إذا كان هو الغرض المطلوب : لا فعل الشر .

فأما إن كان تشرره يلحقه أسفاً وغيظاً ، فليعلم أنه إذا سكن غيظه ، وجد ذلك المقصود بالشر : غير مستحق لذلك الفعل ، ففعل الشر قبيح ، وخاصة بمن قد جمع الفضائل .

إلاَّ أن يكون ذلك الشر تأديباً على جرم ، واقتصاصاً من جان ، فإن هذه الحال مستحبة محمودة ، بل لا يعد شراً ، لأن ذلك الشر إنما يصل إلى الجاني فقط ، ويكون منه نفع عام لجميع الناس ، بأن يرتدع أمثاله من الجناة ، وتكون المنفعة فيه أكثر ، من أجل ذلك لا يعد شراً .

وإذا اعتمد الإنسان فعل الخير ، وألفه ، وتجنب الشر ، واستوحش منه : لانف من الأخلاق المكروهة ، التي تعد شراً كالحسد ، والحقد ، والخبث ، والخديعة ، والنميمة والعيبة . والواقعية ، وأمثال هذه العادات .

وإذا فكر العاقل المحصل فيها : علم أنها غير مجدية عليه نفعاً ، وهي مع ذلك تشينه وتقبح صورته .

وإذا كان محباً للتمام ، مستشرفاً للكمال ، كان واجباً عليه تجنب هذه الأخلاق .

---

(١) في الأصل المطبوع «ليعتقد» .

وينبغي لمحب الكمال : أن يعتقد أنه ليس شيء من العيوب والقبائح خافياً عن الناس ، وإن اجتهد صاحبها في سترها ، فلا يطمع نفسه في ارتكاب فعل قبيح يظن أنه ينكتم عن الناس ، حتى لا يقف عليه أحد[1] .

ويجب أن يعلم أن الناس بالطبع موكلون بتتبع عيوب الناس : وتعييرهم بها ، وذلك في الناس غريزة ، والسبب فيه أن الإنسان ما لم يبلغ التمام ، فليس يخلو من تقصير يعاب به ، ويسوؤه أن يكون غيره أفضل منه ، فهو يسر أن يكون الناس كلهم نقصاء ، ليساووه في النقص ، ويخلوا دونه ، فهو أبداً يتتبع معايب الناس ، ويعيرهم بها ، ليرى الناس أنه أفضل ممن فيه ذلك العيب ، ويشعر نفسه أيضاً ذلك ، لتطيب بما فيها من العيوب .

فليس شيء من العيوب يخاف عن الناس ، وإن اعتمد ستره .

وقد يظن كثير من الملوك والرؤساء : أن عيوبهم مستورة عن الناس ، غير بادية ، وذلك لموضع هيبتهم ، وعظم سطوتهم ، يستشعرون أن حاشيتهم وخواصهم لا يجسرون على إظهار أسرارهم إن وقفوا على شيء منها، وهذا نهاية الغلط ، لأن خواص الملك وحاشيته ، كما أنهم عنده ثقاة أمناء ، كذلك لكل واحد منهم خاص وثقة يخرج إليه بأسراره ، والذي لا يستر أسرار نفسه ، فمحال أن يستر أسراره غيره[2] .

---

(١) مصداق قول رسول الله (ص) : «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ، ليس لها باب ولا كوة ، لأخرج عمله للناس كائناً من كان» رواه الإمام أحمد ، وأبو يعلى ، وابن حبان ، والحاكم .

(٢) إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه
فصدر الذي يستودع السر أضيق

وهـذا الحال : طـريقة إلى إنتشـار معايب الملوك ، الـذين يظنـون أنها مستورة .

والعلة في ظنهم أنهـا مستـورة هـو : أنهم لا يسـمعـون أحـداً يذكرها ، ولا أحداً يتنصح إليهم بها ، فيظنون أنها خفية .

فـإذا أحب الإنسـان أن يعلم أن عيـوبـه غير خـافيـة ، فليعـد إلى نفسـه ، ولينظر : هـل يعرف لأحـد عيباً كـان يستره ويخفيـه ، فإنـه يجد للنـاس عنـده عيـوبـاً كثيـرة قـد اجتهـدوا في سترهـا ، وحـرصـوا على صونها .

ومنهم من يظن أنها خفية .

ومنهم من يعلم : أنها قد انتشرت بعد الستر .

فإذا علم أنه عـارف بأسـرار كثير من النـاس كانت مستـورة ، فمن الـواجب أن يعتقد أن عيبـه غير خـاف ، ولا منكتم ، وأن الناس يعرفون من عيوبه أكثر مما يعرف من عيوبهم .

فينبغي لمحب الكمال : أن يعتقد أن عيـوبه ظـاهرة ، وإن اجتهـد في إخفـائها ، وليس بتـام من عرف لـه عيب ، ولا طريق إلى التمـام إلاّ باجتناب العيوب بالكلية ، والتمسك بالفضائل في سائر الأمور .

وهـذه الرتبـة غايـة تمام الإنسـانيـة ، ونهـايـة الفضيلة البشـريـة ، وواجب على كـل إنسان : الاجتهـاد في بلوغها ، واستفـراغ الـوسـع في الوصول إليها ، لأن التمام مطلوب لذاته ، والنقص مكروه لعينه .

وأحق النـاس بطلب هـذه الرتبـة ، وأولاهم بـالتحمـل لبلوغ هـذه المنزلة : الملوك والرؤساء ، وأشراف الناس ، وأعظمهم قدراً .

وما أقبح بالشريف العظيم أن يكون ناقصاً .

فـالملوك إذا ينبغي أن يكـون أشـد النـاس حـرصـاً على بلوغ

الكمال ، لأن الكامل من الناس ، الجامع للفضائل : مترتب بالطبع على الناقص من الناس .

فالإنسان التام : رئيس بالطبع .

وإذا كان الملك تاماً جامعاً لمحاسن الأخلاق ، محيطاً بجميع المناقب ، كان ملكاً بالطبع .

وإذا كان ناقصاً كان ملكاً بالقهر .

وما أولى بالملك : أن يرغب في الرئاسة الحقيقية التي لا تكون بالقهر والشرف الذاتي ، لا ما هو بالوضع .

فالواجب : أن يصرف الملك همته إلى إكتساب الفضائل ، واقتناء المحاسن ، ويطلب الغاية في المكارم ، ويستصغر الكبير منها ، حتى يحوز جميعها ، ولا يرضي بالنهاية ، حتى يزيد عليها .

فإنه إن رضي برتبة فوقها رتبة لم يصل أبداً إلى التمام .

وإن أبعد الناس من التمام : من رضي لنفسه بالنقصان .

فإذا طلب الملك الكمال ، فأول ما يجب أن يعتاد : عظم الهمة ، فإن عظم الهمة يصغر في عينه كل رذيلة ، ويحسن له كل فضيلة .

وإذا عظمت همة الملك سلم من الأعجاب بملكه ، ورأى نفسه وهمته : أعظم قدراً من أن يستكبر ذلك الملك .

وإذا احتقر الملك ملكه الذي به عزه وعظمته ، طلب لنفسه ما يعظمها بالحقيقة ، وليس يعظم النفس إلاَّ الفضائل .

ثم : ينبغي له أن يكره الملق[1] . ويبغض المتملقين وينهاهم عن تلقيه به .

---

١) بفتح الميم واللام : النفاق ، وإظهار غير ما يحفر

وملاك أمره : أن يتعرف عيوبه حتى يمكنه توقيها والتحرز منها ، وهذا في الملوك صعب ، لأن الإنسان بالطبع يخفي عليه كثير من عيوبه .

فالذي يخفي على الملوك أكثر لإعجابهم بمحاسنهم ، وعظم مرتبتهم .

وأيضاً فإن الرعية والسوقة ، يبكتون بعيوبهم ، ويعيرون بها ، فهم يعرفونها .

والملوك : لا يجسر أحد على تبكيتهم ، فلا يقدم أحد على تبكيتهم على عيوبهم ، لأن الناس أجمع : يقصدون التقرب إلى الملوك يملقهم ، فلا يقولون لهم إلاّ ما يحبون ، لينالوا الحظوة عندهم .

فعيوب الملوك أبداً خفية عنهم .

وينبغي للملك إذا أحب أن يتنزه من العيوب ، ويتطهر من دنسها : أن يتقدم إلى خواصه وثقاته ، ومن كان يسكن إلى عقله وفطنته من خدمه وحاشيته ، فيأمرهم أن يتفقدوا عيوبه ، ونقائصه ، ويطلعوه عليها، ويعلموه بها .

وينبغي له أيضاً : أن يتلقى من يهدي إليه شيئاً من عيوبه بالبشر والقبول ، ويظهر له الفرح والسرور بما أطلعه عليه .

بل المستحسن منه : أن يجيز[١] الذي يوافقه على عيوبه أكثر مما يجيز المادح له على نقصه ، ويتحمل لومته على فعله ، فإنه إذا لزم هذه الطريقة ، وعرف بها : أسرع أصحابه وخواصه إلى تنبيهه على عيوبه ، وإذا نبه على ما فيه من النقص : أنف منه ، واستشعر أولاً أن

---

(١) يجيز : يعني يعطيه جائزة .

سيعيرونه به ، ويصغرونه من أجله ، ويلزمه حينئذ أن يأخذ نفسه بالتنزه من العيوب ، ويقهرها على التخلص من دنسها ، فإذا فعل ذلك ، وتوفر على إقتناء الفضائل ، وألزم نفسه التخلق بالمحاسن ، ولم يرض من منقبة[1] إلاّ بغايتها[2] ، ولم يقف واجتهد فيما يحسن سياسة نفسه عاجلاً ويبقى له الذكر الجميل آجلاً ، لم يلبث أن يبلغ الغاية من التمام ، ويرتقي إلى النهاية من الكمال ، فيحوز السعادة والإنسانية والرئاسة الحقيقية ، ويبقى له حسن الثناء مؤبداً[3] وجميل الذكر مخلداً .

* * *

فقد أتينا على صفة الإنسان التام الجامع لمحاسن الأخلاق والطريق التي تؤديه إلى هذه الرتبة ، وتحفظ عليه هذه المنزلة .

وقدمنا : ما يجب تقديمه من «سياسة الأخلاق وتهذيب النفوس» : فما أولى من نظر في هذا القول وتصفحه ، وفهم مضمونه وتدبره : أن يأخذ نفسه باستعمال ما بين فصوله ، ويسوس أخلاقه مما يتطرق إلى الذي قنن[4] في تضاعيفه ، ويجتهد كل الاجتهاد في تكميل نفسه ، ويستغرق غاية الوسع في طلب تمامه ، فما أقبح النقص بالقادر على التمام ، والعجز من المستعد لنيل الكمال .

وهذا حين نختم القول بـ «تهذيب الأخلاق» .

والحمد لله .

وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه .

* * *

---

(١) أي فضيلة من الفضائل .

(٢) الغاية : نهاية المقصود .

(٣) أي مدة حياته وبعد مماته .

(٤) قنن : أي وضع قوانين يعمل بها الناس .